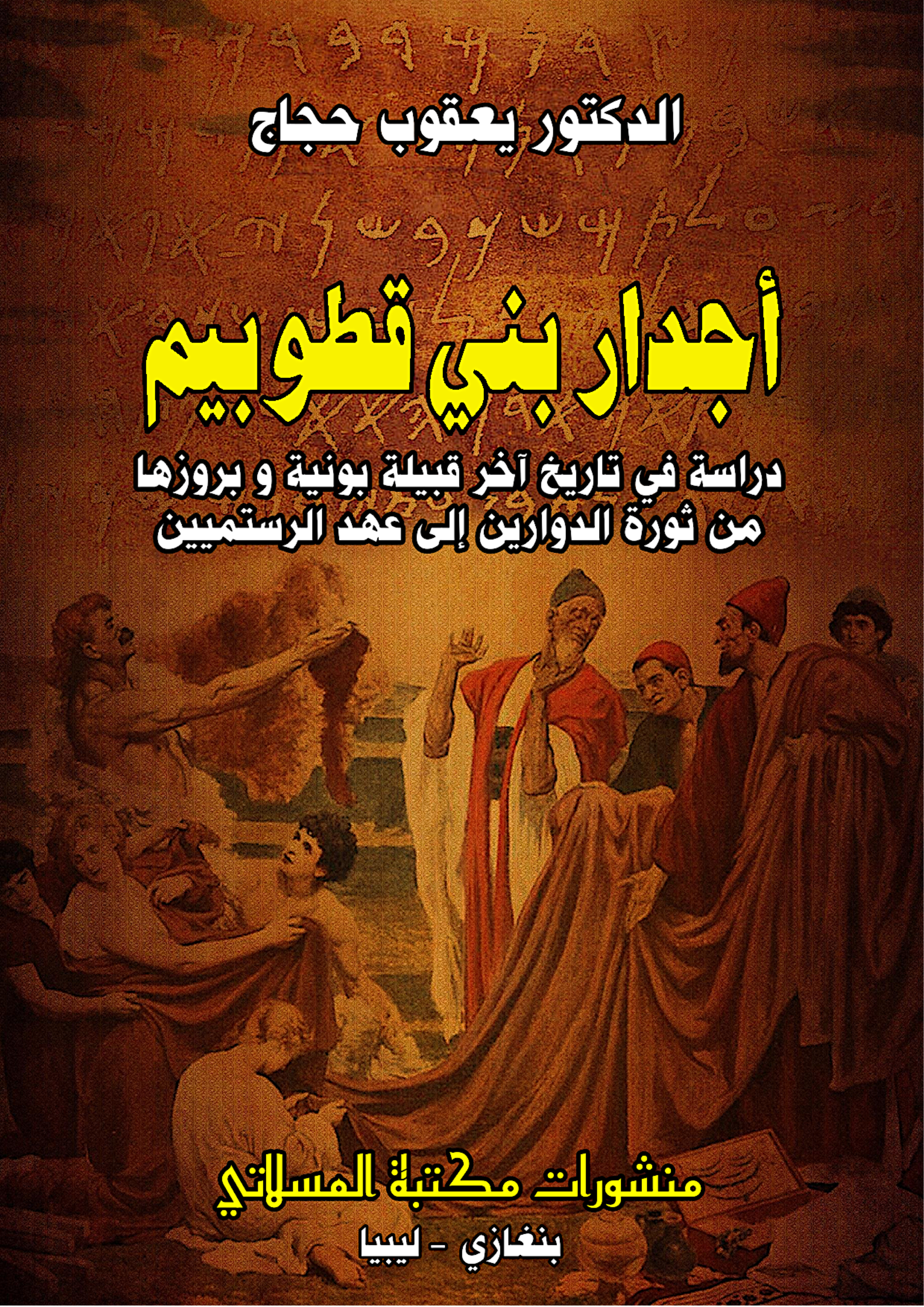

الدكتور يعقوب حجاج
أجدار بني قطوبيم
دراسة في تاريخ آخر قبيلة بونية و بروزها
من ثورة الدوارين إلى عهد الرستميين
منشورات مكتبة المسلاتي
بنغازي - ليبيا

الطبعة الأولى 2008

الدكتور يعقوب حجاج

أجدار بني قطوبيم

دراسة في تاريخ آخر قبيلة بونية و بروزها من ثورة الدوارين إلى عهد الرستميين

منشورات مكتبة المسلاتي
بنغازي - ليبيا



والحمد لله رب العالمين

والصلا والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

مولانا وسيدنا محمـد وآله الكرام

«اللهم صلى على محمد وعلى آل محمـد ، كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم، فى العالمين انك حميد مجيد»

الإهداء

إلى شَيْخ الشُّهداء عُمَر المختَار

وإلى جميع الشُّهداء الأحرَار

دِفاعاً عَن حُرّية الوَطَن

فهرس المحتويات:

تقديم

المقدمة :

لقد كتب الكثير عن البونيين وعن الدور الذي قاموا به في شمال افريقيا على مختلف الأصعدة: السياسية والاجتماعية والحضارية، وعن مدى انتشارهم في مختلف البلدان، وقد نجحوا في تكوين إمبراطورية بونيقية كدولة قوية، ومنها كانوا ينطلقون إلى محاربة الدول المجاورة.

أطرح سؤالا قد يكون خطيرا في الظروف الراهنة: ألا يكون هؤلاء الناس من أجدادنا الذين خلفوا لنا اللسان المغاربي الدارج من لغتهم البونية، هذه اللغة التي طغت على اللغة الليبية نفسها، وتبناها الليبيون القدامى أنفسهم في وثائقهم كلغة ثانية بجانب لغتهم، وربما خلف لنا البونيون الكثير من صفاتهم وعاداتهم وتقاليدهم أيضا، ألا تكون هذه العناصر من مكونات القومية الحقيقية؟

أجل، إن اللغة البونية السامية أصبحت لغة الدولة الرئيسية في الدول العتيقة بشمال افريقيا كقرطاج و نوميديا، وقد كان إسهام هذه الأمة في تقدم الحضارة إسهاما كبيرا، بل إن الحيز اللغوي الذي شغلته قد أسهم كثيرا في البلدان التي كانت بها، بعد قرون طويلة، ستشهد نشأة المسيحية ثم الإسلام. ومن ثمة، يتحتم علينا الإحاطة بالحدث البوني، و اختفائه اللا مبرر و ذوبانه في المجتمع المغاربي المعاصر. وربما تفتح هذه الدراسة أمامنا آفاقا لمعرفة الهوية أو القومية التي نسعى في سبيل اكتشافها والانتماء إليها والالتزام بها .

ليس هناك من مستند رسمي من غلاة القومية يستطيع أن يعطي رقما حقيقيا لعدد العرب الأقحاح في شمال افريقيا، أي الذين يعودون في انتمائهم العربي إلى قرون عديدة. ولكن هذا لا يمنع من القول أن الكثيرين ممن وفدوا على هذه المنطقة منذ مئات السنين قد اندمجوا بها وصاروا عربا بالإنتماء، بل هم الآن بناة العربية، ولهم إسهاماتهم

في بناء هذه القومية، بيد أنه تضيع معالم من نستطيع أن نشير إليهم على أنهم من سكان هذه البلاد الأصليين، طالما أن الهجرة كانت قائمة من هنا وهناك إلى هذه المنطقة. على أن هناك شعبا كان يسكن هذه المنطقة منذ القديم، وهم البونيون الأقرب إلى الأرومة العربية، بحيث أنه يندر أن نرى هذه المزاوجة بين شعبين ولغتين مع تاريخ مشترك لمنطقة واحدة كما هو حاصل بين البربر والعرب.

وليس في نية كاتب هذا الكتاب، المنتمي فكريا إلى القومية العربية، التفريق في هذا الشأن، ذلك أن ليبيا العربية غدت قاعدة القومية العربية منذ عشرات السنين، كما أن جميع من فيها يفاخرون بإسهاماتهم في هذا الأمر، منذ القرن الثامن عشر ومقاومتهم للاحتلال العثماني ودورهم الهام في استقلال هذه البلاد.

لقد ازداد وعي أهالي المنطقة بتاريخهم، وغدا الفرد المغاربي، وخاصة أن الحضارة العربية الإسلامية أتت متأخرة بعض الشيء (1500 سنة) فإن للحضارة البونية الكنعانية الممتدة لثلاثة آلاف ومئتي سنة، أعطت الكثير للحضارة المغاربية، أكثر مما يمكن الحديث عنه في هذا الكتاب، وقد بقي من البونيين الأقحاح، من يمكن أن نشير إليهم ونبينهم، ممن ينتسب إلى الطائفة المنعانية الجدارية، و هي قبيلة كبرى تنتشر بشكل أكبر بالجزائر ثم باقي بلدان المغرب الكبير.

نعود إلى القول أن البونيين يمثلون عصبا حساسا من تاريخ هذه البلاد لازال الكثير من الناس يطرقون لغتهم، حتى لو كانوا اليوم يقولون عن أنفسهم أنهم أشراف أدارسة أو عرب أو بربر. كما أن هذه اللغة مطروقة بشكل كبير، تعادل العشرين في المئة، على أسماء المدن والقرى في بلاد المغرب، كما نستطيع أن نبينها بشكل واضح من خلال

اللهجة العامية المتداولة التي تشكل ربع اللغة المغاربية الدارجة، محرفة أحيانا بمخارج بسيطة لا تذكر بفعل عامل الزمن، ولاعجب في ذلك..

وإذا كان عامل الزمن قد أعطى الحديث عن الحضارة البربرية في أبعادها، ومنها البعد السياسي، فإن الحضارة البونية انعدمت فيها هذه الخاصية، ولهذا بقيت آثارها بارزة في شؤون الفن والأدب وطقوس الدين واللغة وغير ذلك ،وهكذا منذ نشأت الحضارة البربرية في هاته الأرض، كانت هناك حضارة أخرى في المنطقة تعاونت معها، أخذت منها وأعطتها، حتى كادت أن تذوب الأخيرة بها، وهي الحضارة البونيقية، والخطأ أن تجرنا أحادية النظرة الواحدة إلى التاريخ ونحن في زماننا الحاضر، في دراسة أصلنا، فهذه هي مصدر كل الخطايا والمغالطات في التاريخ.. الآن لكي يفهم ولكي يفعل ليس في بيئته فحسب، وإنما في نفسه كذلك،والإنسان الحديث يعي ذاته إلى درجة لم يسبق لها مثيل، وبالتالي يعي التاريخ، وهو يمضي النظر بحماس في الفجر الذي أتى منه، أملا في أن تضيء اشعاعاته الخافتة الظلمة التي يتجه إليها. وبالعكس فإن مطامحه وقلقه بصدد الطريق المنبسط أمامه يشحذ نفاذه إلى ما سبق.

إن الماضي والحاضر والمستقبل مترابطون معا في السلسلة التاريخية المتكاملة. ونحن لا نستطيع أن نستنتج من التاريخ غير ما كان، لا ما سيكون. فمع أنه لا يدل أبدا على أن شعبا من الشعوب عاش انحلال حضارته ومولدها من جديد، فإننا نعلم أن هذا الذي لم يحدث بعد، لابد أن يحدث لنا، ولهذا لا نستطيع الاكتفاء بالقول بأن المثل الأخلاقية المتعلقة التي تقوم عليها حضارتنا قد عفى عليها خلال التاريخ، وأن نعزي أنفسنا بالقول بأن هذا يتفق تماما والمجرى المعتاد للطبيعة.. فإننا نحتاج أن نعرف لماذا جرى الأمر على هذا النحو حتى الآن، وأن نستخلص تفسيرا لا من قياس النظير على الطبيعة، بل من

قوانين الحياة الروحية. نحن نريد أن نقبض بأيدينا على مفتاح السر لنفتح به العصر الجديد.. ذلك العصر الذي يتجدد به البالي ولا يبلى فيه ما هو روحي أو أخلاقي.

والقيام بهذه المحاولة أمر جدير بالسعي إليه، فهو إعادة بناء، كما اصطلح على تسميته.. ذلك أن الحضارة التي يحتاج إليها هذا العصر ليست جديدة أو غريبة عنه، بل كانت في مثل الإنسانية من قبل، ويمكن أن نعثر عليها في الكثير من الصيغ العتيقة. وليس علينا أساسا إلا أن نعيد إليها ماكان لها قديما من احترام، وأن ننظر إليها نظرة جدية حينما نربط بينها وبين واقعنا الحالي. وكل تفكير يتجاوز التاريخ الواقعي لابد وأن ينطلق من أيديولوجيا مناهضة.

وبما حوى هذا الكتاب ، نكون قد أوفينا البونيين و نسلهم الحالي من الأجدار المنانعة بعض حقهم في تاريخهم المجيد، آملين أن نكون قد وفقنا في ذلك. إنني سعيد بتحمل المسؤولية الكاملة عن أي خطأ وقعت به في الحكم والتقدير، وعن أي خلل في التحليل الذي قمت به.

تمهيد:

لعل القارئ الكريم الذي سيطالع هذا الكتاب، قد عرف، وقد قرأ من التاريخ، ما يكفيه لكي يفهم الأمثلة التي نضربها لشرح معظم المشكلات التي يعالجها كتابنا هذا. فالقارئ مزود بالفطرة بذاكرة تحتفظ بمحصول سنوات عديدة من التجربة، ومن خلال تلك التجربة لابد أن يكون قد قرأ وسمع الكثير عن البونيين، الذين هم من سكان شمال افريقيا الأصليين.

وإذا كانت الولايات المتحدة التي بلغت قمة التكنولوجيا في العالم قد اكتشفت نقصها في الحضارة، فلجأت إلى إقامة (المناسك) في شمال مانهاتن في نيويورك، إذ جاءوا بجدرانها وسقوفها وسائر أجزائها من مواضع أوروبا، وأقاموها على أرضهم ليكون لهم كما للبلدان الأخرى أثر قديم! وكذلك اشترى ثري أمريكي بناءا إسبانيا ونقله إلى فلوريدا بعد أن فكت أجزاؤه حجرا حجرا ونقلت وأعيد بناؤها، ثم جعلت متحفا يدخل إليه الزائرون بأجر معلوم ليستعيد الثري ماله وزيادة. والسؤال هنا: هل يدل وجود هذين البناءين على أرض أمريكية على روح فنية في أمريكا؟ انهما أضيفا إليها من الخارج، ولم تنبع من نفوسهم الداخلية تعبيرا عن خوالجهم ومشاعرهم، وهكذا الفن والحضارة في أمريكا يشترى أكثر مما يكون جزءا من الحياة. وفي كل هذه الأعمال يقصد إشغار المواطن الأمريكي أن في تلك البلاد حضارة ولو أنها منقولة من بلد آخر أما نحن فننعم بعبق حضارات التاريخ وقدم الإنسان في هذه البلاد، و مدى عمق حضارته وثقافته.. فالأبجدية الأولى خرجت من هذا الشعب البوني، والأوابد التاريخية تشهد عبر العصور على ذلك. إنسان هذه البلاد هو الذي دفع بالتقدم الذي شهده العالم و الدهور إلى ما وصل إليه.. كل ذلك يقتضي منا تعميق الوعي التاريخي لديه. فليست أحداث يومنا إلا

نتيجة لتراكمات حضارية عبرتها مئات وآلاف السنوات فكانت حافزا للمؤرخ أن يتابعها.

إن إمكانية الحاضر في فهم الماضي أعمق مما تشير إليه هذه الأمثلة البديهية .فالحوادث المعاصرة لا تتحكم في تخميناتنا فحسب، وإنما تؤثر كذلك في فهم حوادث ماضية ذات طبيعة مشابهة، كما يتضح من استخدامنا لأسلوب القياس التاريخي الذي ينبع من أعمق نقاط التاريخ ، ومهمة المؤرخ شبيهة بمهمة المحقق الذي يستنطق الشهود ويجمع شهاداتهم ويدرسها ليتمكن من استجلاء ماحدث. وهي شبيهة بمهمة القاضي من حيث أنه يحاول، بمقارنة هذه الشهادات ومقابلتها وسماع أقوال جميع الفرقاء والموازنة بينها، استخراج الواقع قبل الحكم عليه. ولا يستطيع المحقق أو القاضي أن يؤدي مهمته هذه على وجهها الصحيح، إذا لم يأخذ هذه الشهادات والروايات بالشك المتحفظ، وإذا لم يغربلها غربلة دقيقة، لفصل فاسدها عن صحيحها، ولكن الأصول القضائية هي أرحم من الأصول التأريخية، فمن أصول الأحكام القضائية براءة الذمة، وأن المتهم بريء إلى أن تثبت إدانته. أما في التاريخ فالاتهام أصل ومبدأ. فكل نص مشكوك فيه إلى أن تثبت صحته، وكل رواية مهمة إلى أن يقوم الدليل على براءتها.

والمصادر، سواء منها الأولية أو الثانوية، تهم المؤرخ بالقدر الذي تنطوي دقائق أساسية، أو على الأقل بقدر ما توصل إليه من دقائق أساسية. فأهمية تلك التفاصيل إذن لا تنبع من كونها وردت في كتاب بعينه، أو في مقالة خاصة، أو تقرير ما، بل بقدر اعتمادنا على الذي يقص تلك التفاصيل، كأن يكون شاهد عليه من عيان لها.

إن التاريخ هو عملية صراع، تكون نتائجها، سواء أكانت حسنة أو سيئة، من صنع جماعات ما، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ،وهي في الغالب، بصورة مباشرة وعلى

حساب جماعات أخرى، والخاسرون يدفعون الثمن. إن الألم أمر طبيعي في التاريخ، فلكل حقبة عظيمة من التاريخ مصائبها، وكذلك انتصاراتها. وتلك مسألة معقدة إلى حد بالغ، لأننا لانملك معيار يتيح لنا أن نقارن الفوائد الأعظم التي يجنيها البعض بتضحيات الآخرين.. ومع ذلك فلا بد من مثل هذه المقارنة.

لعل القارئ قد يتساءل عن معنى هذه الدراسة في العنوان الذي اخترناه لها، وهل جاء الوقت للتحدث عن تاريخ وعن شعب أسهم بشكل كبير ورائع في حضارة هذه البلاد بصمت وجلل، فكان حارسا على ماضيه التليد، مفاخرا بأصله وأصوله، معطيا الغير مثالا في حب الوطن والتعبد بثقافته.

أجل لقد جاء هذا الوقت للتحدث عن حضارة البونيين، وهم ممن أسهموا في الحضارة العربية بشكل كبير وموزون بعد الفتح الإسلامي، ولا يمكن للمرء أن يعيش الحاضر ويشيح بوجهه عن الماضي، ذلك أن استقرار السلامة تقتضي فهما صحيحا للأصول والأسباب الموروثة وحكما صادقا عليها، وإلى وعي نير لكيفية الإفادة مما تنطوي عليه من قوة وغنى والتغلب على ما يشوبها من ضعف وفساد. فكلما ارتفع الإنسان في مراتب الإنسانية، ارتقت نظرته التاريخية وغزر فعله التاريخي، وكذلك كلما كان وعيه للماضي أصفى ومجابهته له أصدق وأعمق اغتنى كيانه الإنساني وغدا أقدر على الإنتاج. فالإنسان كائن حي فاعل، وبهذه الصفة لا يتأثر بالواقع فحسب، بل يؤثر فيه، ولا يكتفى بأن يكون نتيجة ومحصولا بل يطمح إلى أن يغدو سببا فاعلا، لا يقف عند التأثر بالتاريخ والخضوع له، بل ينشئ الحياة ويصنع التاريخ.

إن اهتمام الإنسان وقلقه وتطلعه إلى المستقبل، يدفعه إلى الإحساس بأنه في وسط مجرى الحياة المتدفقة، فهو مدفوع ودافع، وموجه وموجه، هو ابن التاريخ وأبو التاريخ في وقت

واحد، وتاريخيته تتضمن هذين المعنيين معا. ألا يقال أن التاريخ هو الحوار بين الحاضر والماضي، لأننا إزاء وجهتين تتحاوران بكل ماتعنيه كلمة التحاور من معنى، وهاتان الجهتان هما الحاضر والماضي.

إن الإيمان بأننا جئنا من مكان ما يرتبط بصورة وثيقة بالإيمان بأننا ذاهبون إلى مكان ما بل إن المجتمع الذي فقد إيمانه بقدرته على التقدم في المستقبل سوف يتوقف بسرعة عن إشغال نفسه بتقدمه في الماضي.

إن التاريخ هو وإلى حد كبير، سجل ما استطاعت الشعوب إنجازه، وليس ما عجزت عنه و البونيون عبر تاريخهم الطويل من الانحطاط والسبات والعجز والنهضات المخفقة والهامشية في علاقة الأمم الأخرى بالإبداع العلمي والصناعي والأدبي والفني، بعد عصرهم الذهبي، لا يمكنهم أن يستيقظوا دفعة واحدة بضربة معلم كما يقال.، وواقع البونيين اليوم هو ثمرة سيرورة طويلة لانهيار حضارة وصلت ذروتها ثم آلت إلى الزوال أو كادت تبعا للويلات والفواجع التي عصفت بهم.

الفصل الأول:

الوجود البونيقي بشمال إفريقيا

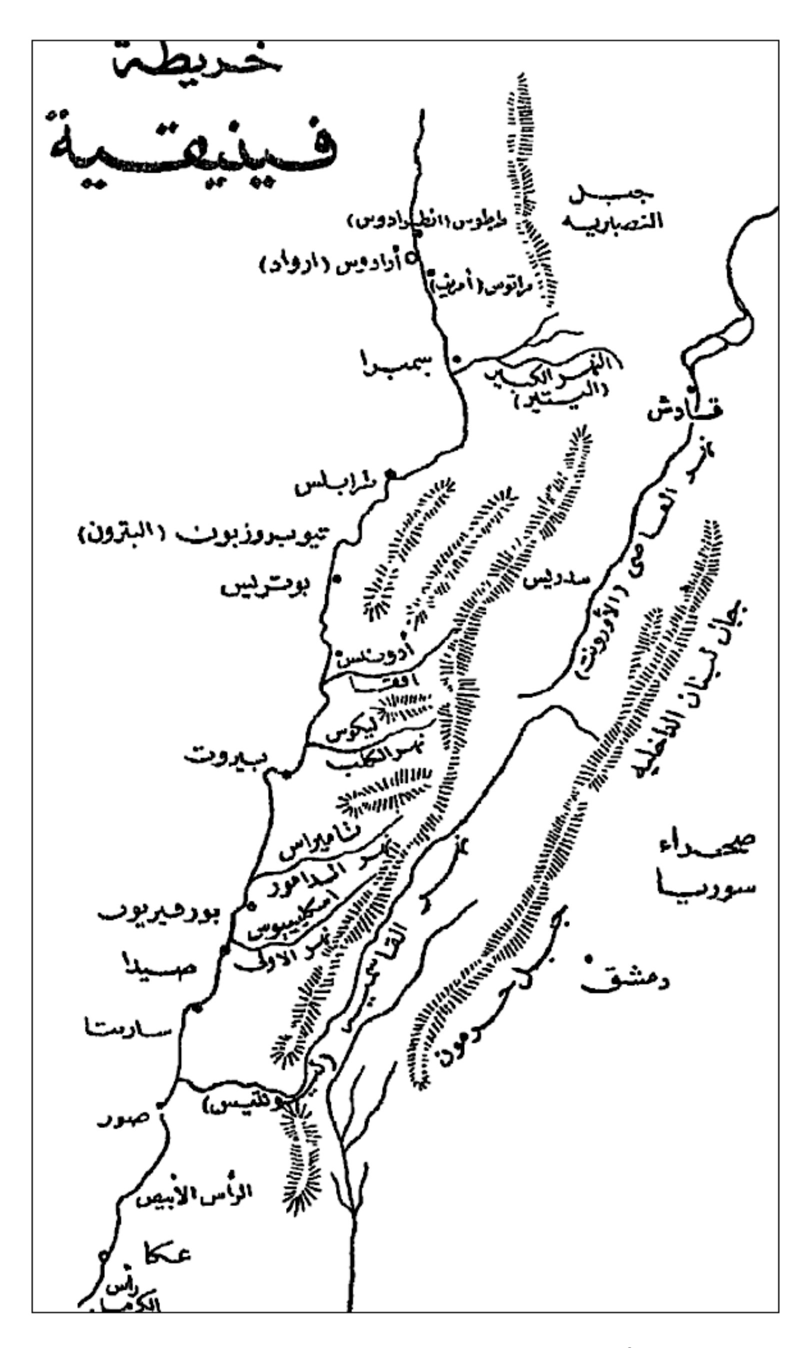
I-الفينيقيون بشمال إفريقيا

اختلف المؤرخون القدامى والمحدثين حول الفينيقيين ،فقد اعتبرهم هيرودوت مهاجرين من سواحل البحر الارتيري، كما أشار سترابون إلى وجود معابد ومدن في منطقة الخليج تتشابه مع مثيلاتها على الساحل الفينيقي، فيما رأى المؤرخ جوستان Justin أنهم نزحوا إلى لبنان عن طريق البحر الميت بعد حدوث زلزال في موطنهم الأصلي، أما فيلون الجبيلي فيرى أن موطنهم الأول هو لبنان ، كما بين موسكاتي أن الفينيقيين قبائل مختلطة من الآراميين والفلسطينيين والعبرانيين وحدهم وجمعت بينهم الطبيعة الجغرافية . هذا ويرجح أغلب المؤرخين أنهم قدموا مع الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية بداية من سنة 3130 ق.م، ويستدلون على ذلك بحمل الفينيقيين لأسماء مركبة مثل عبد ملكارت أي عبد الإله ملكارت، عبد أشمن أي خادم الإله أشمن و جميع الأسماء التي من هذا النوع هي من أصل يمني، وجدت القبائل الكنعانية التي وصلت إلى سوريا أن المكان المناسب لاستقرارها واستيطانها هو الساحل السوري ،على شواطئ البحر الأبيض المتوسط التي تعرف اليوم بلبنان، وتجمع أغلب المصادر التاريخية على أن الكنعانيين والفينيقيين شعب واحد ،فينيقيا وكنعان كلمتان مترادفتان تعنيان على الأغلب شيئا واحدا و كلها مسميات تعني الحمرة الأرجوانية.

يعتقد المؤرخ اليوناني سترابو أن الفينيقيين نشأوا من البحرين. ويعتقد هيرودوت أيضا أن موطن الفينيقيين كان البحرين. وقد قبلت هذه النظرية من قبل الفنان الألماني أرنولد

هيرين في القرن التاسع عشر الذي قال: عند الجغرافيين اليونانيين، على سبيل المثال، نقرأ عن جزيرتين، تدعى تيروس أو تايلوس، وأرادوس، التي تفاخر بأنها كانت الدولة الأم للفينيقيين، وعرضت آثارا للمعابد الفينيقية. وكان شعب صور في جنوب لبنان على وجه الخصوص يحافظ على أصول الخليج العربي لفترة طويلة، وتم التعليق على التشابه في عبارة تيلوس (Tylos) و صور (Tyre). ازدهرت حضارة دلمون في البحرين خلال الفترة من 2200-1600 قبل الميلاد، كما يتضح من عمليات التنقيب عن المستوطنات ومدافن دلمون. ومع ذلك، يزعم البعض أن هناك القليل من الأدلة على وجود استيطان على الإطلاق في البحرين خلال الفترة التي كان من المفترض أن تحدث فيها هذه الهجرة.

ذكر المؤرخ أبو جرير الطبري (المتوفى عام 310هـ/ 922م) أن الكنعانيين هم من العرب البائدة، وأنهم يرجعون بأنسابهم إلى العمالقة. وقال ابن خلدون عن الكنعانيين آخذا عن الطبري: ...وأما الكنعانيون هم من العمالقة، كانوا قد انتشروا ببلاد الشام وملكوها. وقال أيضا: أول ملك كان للعرب في الشام فيما علمناه للعمالقة. وقال أيضا: وكانت طسم والعماليق وأميم وجاسم يتكلمون بالعربية.



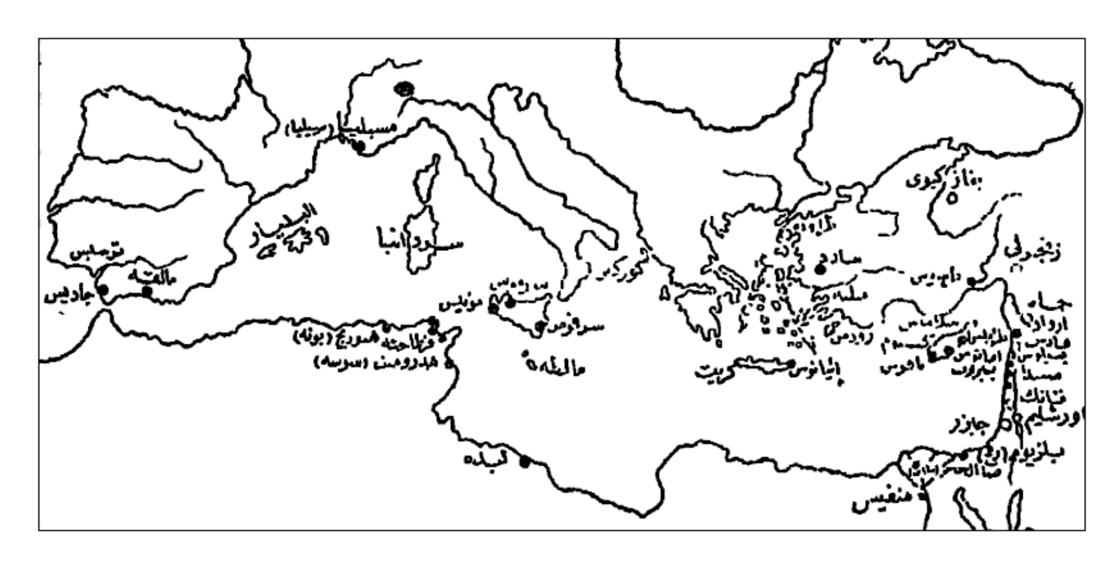
الشكل (1) خريطة توضح حدود فينيقيا القديمة

-التوسع الفينيقي في الحوض الغربي للمتوسط :

كان الفينيقيون أول أمة بحرية في التاريخ، أنشأوا المحطات التجارية التي تحولت إلى مراكز تجارية وأخيرا تحولت إلى مستوطنات فينيقية يستقر بها الفينيقيون بصفة دائمة، ونظرا لأن

وطن الفينيقيين الأصلي يقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، فقد ساد الاعتقاد قديما أن نشاط الفينيقيين التجاري اقتصر على الجزء الشرقي من هذا البحر وأن الفينيقيين لم يصلوا إلى غرب البحر المتوسط إلا بعد تأسيس قرطاجة حوالى 814 ق.م.

ولكن المصادر الأدبية والأثرية تشير إلى أن التواجد الفينيقي في غرب البحر المتوسط منذ فترة مبكرة من تاريخهم ربما يرجع إلى القرن الثاني عشر ق.م. حيث كانوا يبحثون عن مناطق تزخر بالثروات المعدنية والزراعية وفتح أسواق جديدة لمنتجاتهم، فاكتشفوا مضيق جبل طارق (أعمدة هرقل)، وأسسوا محطات تجارية مؤقتة على سواحل شمال وجنوب غرب البحر المتوسط وفى جزره المختلفة. مع مرور الوقت تحولت هذه المحطات إلى مراكز تجارية دائمة وبالتدريج تحولت إلى مستوطنات فينيقية هاجر واستقر بها الفينيقيون بصفة دائمة ، ومن أهم تلك المستوطنات: بانوراموس، سوليس و موتيا في صقلية، ومحطات أخرى في سردينيا، بالإضافة إلى مستعمرات قادس بإسبانيا، وليكسوس بالمغرب الأقصى، و أوتيكا على السواحل التونسية. كل هذه المستوطنات شهدت نشاطا تجاريا كبيرا بحيث أصبح الفينيقيون سادة البحر المتوسط بجزأيه الشرقي والغربي قبل تأسيس مدينة قرطاجة التي أصبحت بمرور الوقت زعيمة المدن الفينيقية في غرب البحر المتوسط.



الشكل (2) خريطة توضح المراكز التجارية الفينيقية في حوض المتوسط

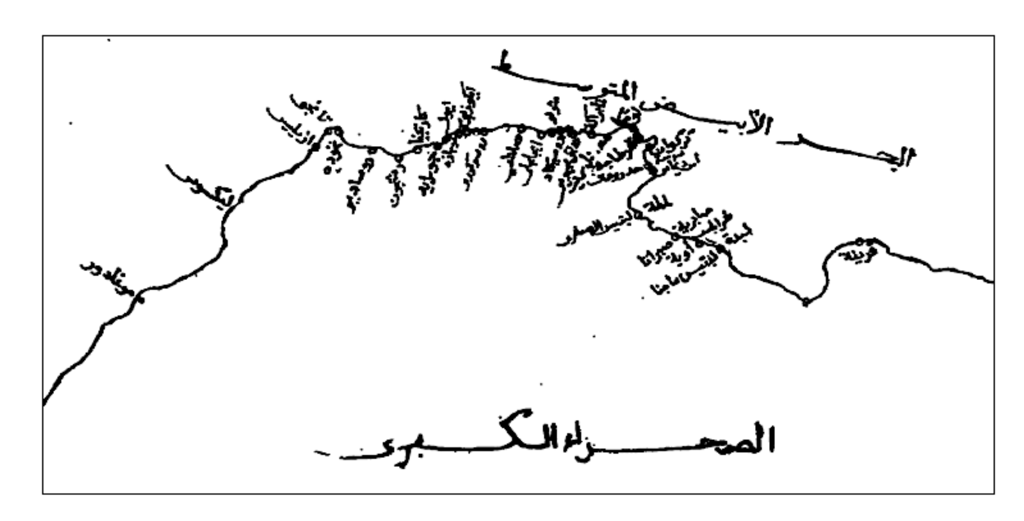
-الإستيطان الفينيقي لشمال إفريقيا :

كان هدف الفينيقيين الرئيسي من الرحلات البحرية هو البحث عن المناطق التي تزخر بالثروات المعدنية والزراعية والأسواق التجارية، وهذا ما يفسر ظهور المراكز التجارية بالأماكن القريبة من مناجم الفضة والنحاس والأراضي الزراعية ، مما دفع العناصر الفينيقية إلى الهجرة من موطنها الأصلي تحت ضغط الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة إلى هذه المراكز والاستقرار بها، ثم تحولت هذه المراكز إلى مستوطنات بعد فترة طويلة وظلت مرتبطة بالوطن الأم دون أن تفقد استقلالها الذاتي، وهكذا أسس الفينيقيون نظام استيطان غير مستغل للشعوب وهو توفير الأرض لفائض السكان من الفينيقيين، والثروة لفقرائهم، والغذاء لأبناء شعبهم في تلك المستوطنات الجديدة أو في الوطن الأم .أيضا من الأسباب التي دفعت الفينيقيين لخروجهم من بلادهم الأصلية كان لبيع بضاعتهم المصنعة و جلب المواد الأولية من المناطق التي وصلوا إليها، فحاجتهم إلى

المواد الخام من أجل مصنوعاتهم، أيضا العوامل البشرية والطبيعية والسياسية دفعتهم للخروج إلى البحر المتوسط و إنشاء المراكز التجارية. كما أن هناك أسبابا اجتماعية واقتصادية دفعت الفينيقيين لخروجهم فمثلا مدينة صور التي كانت تتزعم مدن الساحل الفينيقي الشرقي كانت تعاني من زيادة عدد السكان فعالجت هذه المشكلة بتأسيس المستوطنات في الخارج لاستيعاب عدد من سكانها الزائد، فقد أشار جوستين Justin عند حديثه عن تأسيس إحدى المدن في شمال إفريقيا إلى أن هناك سببين لإقامتها : أولا العدد الكبير من السكان في صور وثانيا محاولة إخراج الشباب من المدينة للتخلص من مشاكلهم التي قد تؤدي إلى إلحاق الضرر بمصالح الطبقة الأرستقراطية الحاكم وهما سببان يبرزان النمو السكاني الكبير والصراعات الداخلية بين افراد الهيئات الحاكمة.

ولقد بدأ التوسع الفينيقي في البحر المتوسط وتأسيس المراكز التجارية بعد القضاء على المكينيين على يد الدوريين حوالي عام 1100 ق.م، وهكذا أصبح البحر المتوسط مفتوحا للفينيقيين بدون منافس، وانتشرت السفن التجارية الفينيقية في جميع أنحاء البحر المتوسط وأسسوا المراكز التجارية والمستوطنات الفينيقية على سواحله، إذ ظهرت لهم مراكز في جزر بحر إيجة ومالطة وصقلية وسردينيا وغيرها وبمرور الوقت بلغت شهرة الفينيقيين أوجها في حوض البحر المتوسط، حيث أسسوا مجموعة كبيرة من المراكز التجارية الدائمة على طول السواحل الشمالية والجنوبية لهذا البحر ،فكانوا يبنون ويؤسسون المحطات حينما يذهبون، وكانوا يتسربون إلى المناطق الجديدة دون إثارة الشكوك حولهم من قبل السكان الأصليين، تجنبا للاصطدام معهم ، وهكذا استطاعوا التوغل داخل البلاد التي نزلوا بها بالطرق السلمية.

بدأ الفينيقيون نشاطهم التجاري في غرب البحر المتوسط منذ وقت مبكر قد يعود إلى القرن الثاني عشر ق.م إذ قاموا بزيارات متعددة إلى صقلية وسواحل البحر المتوسط قبل تأسيس المستوطنات إذ يذكر بليني أن الفينيقيين وصلوا إلى صقلية، حيث وسعوا نشاطهم التجاري نحو الغرب باعتباره ملجأ جيدا وسط البحر تتوفر فيه موانىء جيدة ومناسب للملاحة و يبدو أنهم قد توغلوا في هذا الوقت المبكر إلى أقصى الغرب واستخدموا عددا من المرافئ أقاموها هناك ثم حولوها إلى مراكز تجارية قبل تحويلها إلى مستوطنات فينيقية، في البداية اقتصر الفينيقيون على إقامة منازل مؤقتة يقيمون بها عند الحاجة وأحيانا كان يستقر بها عدد قليل منهم يعيشون حياة بسيطة دون أن يشيدوا مساكن دائمة لهم، كانوا يستريحون في هذه المحطات أياما قليلة، كانت هذه المحطات النواة الأولى لحركة استيطان وعمران واسعة النطاق انتشرت في أرجاء العالم القديم مسيطرة على جزر البحر المتوسط ومناطق واسعة من شمال إفريقيا ومن شبه جزيرة أيبيريا وتجاوزتها إلى مناطق أبعد على سواحل المحيط الأطلسي إذ بلغت المحطات التجارية الفينيقية على طول الساحل الأطلسي حوالي ثلاثمائة محطة، و قد كان هدف الفينيقيين من التوغل في غرب البحر المتوسط هو الحصول على المواد الخام، لاسيما معادن الحديد والرصاص والقصدير من شبه جزيرة أيبيريا، والمواد الأولية الأخرى التي كانوا يحصلون عليها من المغرب القديم مثل الملح وريش النعام وجلود الحيوانات والعاج .



الشكل (3) خريطة توضح المستوطنات الفينيقية في شمال إفريقيا

ومن هنا بدأ اهتمام الفينيقيين بالشمال الإفريقي واعتباره مجالا مناسبا للتوسع وحلا لمشاكلهم الاجتماعية الناجمة عن زيادة عدد السكان. وخلال هذه الفترة المبكرة كان الفينيقيون يحاولون اكتشاف طبيعة سواحل منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط لأماكن تصلح لبناء محطاتهم ومستوطناتهم المقبلة، خاصة على شواطئ بلاد المغرب القديم التي كانت معظم سواحلها صخرية.

ولقد أشار ديودوروس إلى ذلك بقوله: قاموا برحلات بحرية متكررة بهدف التجارة وأسسوا مستوطنات كان عدد كبير منها على السواحل الليبية وأخرى في غرب أوروبا .

ويذكر استرابون: أن الفينيقيين الذين اجتازوا أعمدة هرقل أسسوا مستوطنات على شواطئ البحر الداخلي بعد وقت قصير من حرب طروادة أي نهاية القرن الثاني عشر ق.م. فتأسيس مستوطنة قادس (Gades) بإسبانيا كان في 1110 ق.م، وربما وفي نفس السنة أو قبلها بقليل، أسسوا ليكسوس (Lixus) بالمغرب الأقصى بالرغم من أن بليني

يرى أن ليكسوس أقدم منها على أساس أن معبد الإله هرقل ملقارت بليكسوس أقدم من مماثله في قادس ثم مستوطنة أوتيكا (Utique)على السواحل التونسية .

ولقد تحولت تلك المحطات التجارية المؤقتة وغيرها بمرور الوقت إلى مستوطنات دائمة ويبدو أن اختيارها من طرف المهاجرين كوطن جديد لهم يرجع إلى شهرتها وثرائها فجاءت أعداد كبيرة من الفينيقيين إلى غرب البحر المتوسط وبدأت تظهر المستوطنات الفينيقية، أما بالنسبة للمستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي من البحر المتوسط، فإن أكبر مشكلة تواجه الباحثين هو تحديد تاريخ بداية استقرار الفينيقيين في هذه المنطقة، فالمخلفات الأثرية التي تتمثل عموما في الأواني الفخارية، تقدم تواريخ تتعارض كثيرا مع المصادر الأدبية.فبينما تحدد المصادر الكتابية تأسيس أول مستوطنة فينيقية في غرب المتوسط، وهي مستوطنة قادس في شبه جزيرة أيبيريا إلى نهاية القرن الثاني عشر ق.م، نرى أن المصادر المادية تقف عاجزة عن إثبات هذا التاريخ، فلا يتجاوز أقدمها منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، نفس الشيء ينطبق على مدينة قرطاجة الذي عرف تاريخ تأسيسها بعام 814 ق.م، هناك فارق زمني بين المصادر الأدبية والمصادر الأثرية إلا أن العلماء اتفقوا على اعتبار أن التاريخ السابق هو الصحيح.

أيضا من بين الصعوبات قلة المصادر الكتابية والأثرية الفينيقية الأصل، ومن هنا فان الحديث عن التوسع الفينيقي يعتمد على ما سجله الكتاب اليونان والرومان، وأيضا يعتمد على مقارنة البقايا الأثرية التي يعثر عليها في مواقع المستوطنات الفينيقية في غرب وشرق البحر المتوسط، خاصة أن هذه المصادر تركز بالدرجة الأولى على مدينة صور، وتولي أهمية كبيرة بتاريخها حيث كانت تعد الأهم في عملية التوسع الاستيطاني ، في

البداية أسس الفينيقيون محطات في وسط وغرب البحر المتوسط كمراكز للاستراحة لمواصلة رحلاتهم إلى أعمدة هرقل ومن أهم تلك المحطات كانت قادس Gadaes لتسهيل عملية التبادل التجاري مع سكان هذه المنطقة الغنية بالمعادن.

II-الحضارة البونيقية بشمال إفريقيا

تعتبر قرطاجة (Carthage) أشهر الحضارات و المستوطنات البونيقية وأكثرها أهمية على الإطلاق، و أصل التسمية (قرت حدشت) التي تعني المدينة الجديدة، وهو ما فسر على أن المدينة قد ورثت مركزا أكثر قدما منها بذلك الموقع أو أنها ألحقت به، وبالتالي قد تعني مدينة جديدة بالنسبة لأوتيكا الأقدم منها والتي لا تبعد عنها سوى بثلاثين كلم، و قد بنيت المدينة في خليج أوتكنسيس، وقد بني تأسيس المدينة على أسطورة تاريخية بطلتها الملكة الصورية إليسا (المعروفة بعليسة في التراث الشعبي) ،التي دفعها غضبها من أخيها بيغماليون بعد قتله لزوجها الكاهن الأعظم لمعبد الربة عشتروت إلى الهرب برفقة عدد من مؤيديها إلى شمال إفريقيا بعد مرورها القصير بقبرص، وحال وصولها إلى موقع قرطاجة حاليا عقدت اتفاقية مع ملك الليبيين هيارباص Hairbas حصلت بموجبها على قطعة ارض تعادل مساحة ما أحاط به خيط رقيق من جلد ثور، وقد اختير مكان التأسيس بعناية فائقة ،فهو يقع وسط الطريق الواصل بين شرق وغرب المتوسط، كما أنه يعتبر موقعا محميا طبيعيا بفضل كثرة الرؤوس البحرية المجاورة له كرأس ديماس وكاب بون.

أصبحت المدينة الجديدة مركزا دينيا للربة عشتروت (عشتار) بعد أن أحضرت إليسا من قبرص ثمانين عذراء نذرن أنفسهن للخدمة في هذا المعبد ،كما رافقها كاهن جونو بعد أن ضمن لنفسه أن يكون الكاهن الأعظم لمعبد المدينة الجديدة ولخلفه من بعده ،كما

استفادت هذه الملكة من خبرة العديد من مرافقيها لبناء مجتمع حضاري بالمدينة ،لكن رغم ذلك ظلت قرطاجة منذ تأسيسها تدين بالولاء والتبعية لصور، ويظهر ذلك في تقديم القرابين والهدايا السنوية لمعبد الإله ملقرت ،ممثلة في عشر مداخيلها، لكنها استطاعت مع مرور الوقت أن تظهر كمدينة مستقلة مستغلة ضعف صور وبقية المدن الفينيقية الشرقية بعد سقوطها على يد نبوخذ نصر سنة 574 ق.م لتتطور ثم تتزعم المدن الفينيقية الغربية و تنشأ إمبراطورية نافست الفرس والإغريق في شمال إفريقيا مرورا بسردينيا وصقلية الغربية وجزر البليار وسواحل اسبانيا ملحقة المدن الفينيقية في شمال إفريقيا، وانطلقت منها رحلات طويلة حفظت في كتب التاريخ القديمة أشهرها رحلتي هميلكان Hamilcon وحنون Hannon إلى بريطانيا وجنوب غرب إفريقيا.

شهدت العلاقات القرطاجية الإغريقية توترا بداية من القرن الثامن قبل الميلاد نتيجة اشتداد المنافسة التجارية بينهما ،وكان مركز هذا التوتر جزيرة صقلية فقد حاول جيش مدينة سيلينوس الإغريقية في سنة 580 ق.م طرد الفينيقيين من مستوطناتهم في موتيا و بانورموس ، لكن قرطاجة استطاعت ان تصد هذه المحاولة وحققت نصرا مشتركا مع حلفائها الاتروسكيين سنة535 ق.م في معركة ألااليا .

توقفت السياسة التوسعية القرطاجية في صقلية بعد معركة هيميرا 480 ق.م مدة سبعين عاما و اتجهت خلال هذه الفترة إلى كسب أراضي في أفريقيا على حساب جيرانها النوميديين في محاولة لتعويض خسارتها فأمنت بذلك أخصب الأراضي التي وفرت المؤن الضرورية من الطعام كما شكلت منطقة استيطان جديدة لاستيعاب الفائض السكاني الذي أصبح مهددا في صقلية ،فزاد نفوذ قرطاجة في الداخل بشكل كبير حتى امتدت

مراكزها التجارية من خليج السرت الى أعمدة هرقل ، وأشهر المراكز الجديدة نجد هيبو أكرا بنزرت، وهيبو ريجيوس عنابة، وروسيكادا سكيكدة...،وغيرها من المدن التي بقيت أثارها شاهدة على عمق التأثيرات القرطاجية.

كانت المدينة تقع في الطرف الشمالي لأفريقيا ، ولم تكن بعيدة عنها إلى صقلية. انطلقت السفن التجارية من هنا وهناك في البحر الأبيض المتوسط ودعت باستمرار إلى هذا الميناء البحري المريح والمحمي جيدا. كانت التجارة نشطة ، وبالتالي بدأت قرطاج في النمو واكتساب القوة.

تطور الوضع الملائم في القرن الثامن قبل الميلاد ، عندما استولت آشور على فينيقيا و نتيجة لذلك ، تدفق اللاجئون من المدن الفينيقية إلى قرطاج. ارتفعت مكانة المدينة على الفور ، وبدأت في تشكيل مستعمراتها الخاصة على طول ساحل شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا. أطلق الفينيقيون على قرطاج لقب المدينة الحديثة ، وبمرور الوقت وحدت 300 مدينة وقادت العالم الفينيقي.

-الحروب البونية و سقوط قرطاج :

ثم أشعل احتلال قرطاجة لمضيق مسينا فتيل الحرب البونية الأولى 264-241 ق.م، فأهلك الطرفان واستنزفت إمكانياتهم المالية والبشرية وتوقف القتال بعد قبول قرطاجة الصلح، ثم انشغلت قرطاجة مدة ثلاثة سنوات بإخماد غضب مرتزقتها الذين ثاروا بعد أن عجزت عن تسديد رواتبهم ، توجه إهتمام قرطاجة الى اسبانبا فبسط حملقار Hamilcar ومن بعده صهره هاصدربعل Hasdrubal ثم ابنه حنبعل Hannibal

نفوذهم على شبه الجزيرة الايبيرية ،وكان استيلاء حنبعل على سغونت Sagonte إيذانا بحرب بونية ثانية دامت عشرين سنة بدأت بحملة حنبعل على روما وانتهت بتوقيع قرطاجة مرغمة على معاهدة زاما الشهيرة سنة 202 ق.م .

انتهت الحروب البونية سنة 146 ق.م بإحراق سكيبيو إميليانوس لقرطاجة وتدميرها نهائيا بدعوى خرق قرطاجة لأحد بنود معاهدة زاما بعد اعلانها الحرب على ماسينيسا سنة 150 ق.م ،ثم أمر أن تحرث وتشبع الأرض بالملح لكي لا ينمو فيها أي نبات بعد ذلك ولا يسكنها أحد ،بعد ذبح معظم المدنيين وبيع من تبقى كعبيد فانتهت قرطاج وتثبتت أقدام إمبراطورية روما.

-البونيقيون حسب أوغسطينوس :

يعتبر القديس أوغسطينوس أحد أهم رجال الدين الكنسيين في بلاد المغرب القديم، وأحد أبرز المفكرين لما قدمه من أعمال وأهمها كتابه (مدينة الله). ويرجع الفضل إلى القديس في تطرقه إلى تاريخ قرطاجة، وما ترك من بصمات هامة على الصعيد الثقافي في المنطقة المغاربية، مما جعل السكان المحليين يحافظون على هويتهم الحضارية .

ولد القديس أوغسطينوس سنة 354 م بتاغست أي سوق أهراس بالجزائر حاليا، ومات سنة 430 م بهيبو ريجيوس، درس الفلسفة والبلاغة بقرطاج وبعدها اشتغل بمسرح قرطاج بضعة سنوات، عندما صار عمره 32 سنة ترك المانوية حسب ادعائه واعتنق النصرانية، وعندما صار عمره 42 سنة أصبح رجل دين بمدينة هيبو ريجيوس (عنابة الحالية) ترك الكثير من الكتب أشهرها ترجم إلى أكثر اللغات بالعالم منها كتاب

(اعترافات) و كتب كذلك (الدولة الالهية) وكتاب آخر هاجم فيه المانوية ، وكتاب الطبيعة والخلاص، و قد كتب القديس أوغسطين عن بعض سكان نوميديا في القرن الخامس الميلادي و قد ذكر بأنهم يصفون أنفسهم بأنهم كنعانيون بلفظ شنعاني (Chanani) أو شنانعي (Chananaei)، فقد قال: إذا سألتم فلاحينا من أنتم سيجيبونكم بلغتهم البونيقية : نحن كنعانيون (Chanani) .

كما أنه تطرق لذكر قبيلة تدعى بالأرزوقيين Arzugis و هي قبيلة ليبوفينيقية (بونيقية) توطنت جنوب و جنوب غرب تخوم طرابلس أواخر العهد الروماني، و كانت منطقة الأرزوق (Regio Arzugum) قرب غرمة، و قد وردت في رسائل القديس أوغسطين حين كان متخوفا من انتشار الوثنية، كون قبيلة الأرزوق كانت وثنية، أما كوريبوس فقد وصف القبائل التي تعيش على جبل أرزوقيس (ARZUGIS) قائلا: تلك التي تعيش في الأرض المرعية و تتغذى من ثمار جبل أرزوقيس الكريه.

-المراتب الاجتماعية العليا عند البونيين :

ويقول سالوست: إن مدينة لبدة الكبرى كانت تعين عن طريق الجمعية الشعبية اثنين من (الشفطم) يكونان على رأس أعلى سلطة في المدينة، ويمارسان السلطة القضائية، بالإضافة إلى تصريف مصالح المواطنين.

وكان نظام الشفطم (القضاة أو الحكام) في المستوطنات الفينيقية مشابها لما كان موجودا في نظام الحكم القرطاجي ، يبدو أنه كان متبعا في المدن الفينيقية على الساحل السوري كذلك، الذي لم يكن وليد مدينة قرطاجة، حيث إن هذه الكلمة كانت قد وردت في

العصر القديم، فقد عثر على نقش في مالطا يذكر نظام الشفطم ومجلس الشيوخ والمجالس الشعبية .

و بالإضافة إلى نظام الشفطم (SUFET) ،تواجد في مدينة لبدة الكبرى نظام آخر من الأنظمة القضائية يعرف بنظام الماحوزيم وهو يعني نظام الجباة، الذي يعود على الأرجح إلى العصر الفينيقي، ومهمة المحازيم توكل إلى مسؤولين يكون اختصاصهم تزويد الأسواق بالمعدات والأدوات، وتحصيل الضرائب ومراقبة الأسعار،و قد استمر تواجد هذه الأنظمة في مجتمعات بلاد المغرب القديم حتى العهد الروماني حيث بقي نظام المحازيم و الشفط مزاولا لمهامه المعهودة و لكن لصالح السلطة الرومانية.

-التواجد الشامي في الجزائر :

لم يكن التواجد البونيقي بشمال إفريقيا هو التواجد السامي الوحيد بل قد ورد ذكر لتواجد سامي آخر يوثقه وجود نقش سوري تدمري في الجزائر، هذا النقش الجنائزي الذي عثر عليه في منطقة القنطرة شمالي مدينة بسكرة الجزائرية، هو واحد من نقوش عديدة لتدمريين كانوا يعيشون في هذا الثغر على تخوم الصحراء الكبرى في الجزائر، واللافت في هذا النقش المكتوب باللاتينية و التدمرية أن صاحبه ليس عسكريا ومن المؤكد أنه كان تاجرا، بينما النقوش الأخرى تخص جنودا من فرقة رماة النبال التدمريين الشهيرة التي تم جلب سرية منها من قبل الامبراطور سبتيموس سيفيروس في منتصف القرن الثاني للميلاد، مشابهة للفرقة الحموية المؤلفة من رماة النبال التي أرسلها إلى حدود إيرلندا .

وقد عثر على نقوش أخرى باللاتينية لجنود سوريين من خلقيس ولكن في منتصف القرن الميلادي الأول، مما يجعل هذه المنطقة مقرا من مقرات القوات الشامية السورية العاملة في الجيوش الرومانية.

الكتابة اللاتينية:	نص الكتابة التدمرية:	القراءة:
MOCIMVS SIMONIS PALMVRIN	نفش مقيم بر سمعن حبل.	قبر مقيم بن سمعان.. وا أسفاه شنت 462 (150م)

كما تتواجد لوحة جنائزية أخرى عثر عليها في منطقة القنطرة بين باتنة وبسكرة شرقي الجزائر، وهي تعود لضابط تدمري يدعى برعا بن تيم أرصو كتب اسمه بالحروف اللاتينية :(BARAS TEMARSE) واسما برعا وتيم أرصو شائعان جدا في الأسماء التدمرية.

نص النقش باللاتينية:

D(is) M(anibus). | (A)el(ia) Urbana vicsit an(nis) XXXVIII.

(A)el(ia) Secundula vicsit an(nis) XVI. Barea Ma\rion vicsit

an{nis) XIIII. Barea Mustula vicsit an{nis) VII. Temarsas Bar\ei

vicsit an(nis) II. Baras Temarse conj{u)gi inerenti et filis fecit

و يقدر الباحث الفرنسي جان ماري لاسير أن تاريخ اللوحة يعود إلى حوالي 200 ميلادية، ولكن مؤرخي الرومان ذكروا أن أورليان نقل الجيش التدمري بعد سقوط المدينة إلى شمالي إفريقيا فهو بالتأكيد تيم أرصو أحد الضباط والجنود التدمريين المنقولين، فهناك الكثير من شواهد القبور لجنود حمصيين وتدمريين و من خلقيس تنتشر أضرحتهم في الجزائر.

يبدو أن برعا بن تيم أرصو تزوج السيدة إليا أوربانا التي قد تكون بونيقية (افريقية)، وأنجب منها عدد من الأبناء والبنات ماتوا جميعا مع الأم، ربما بسبب جائحة أتت عليهم جميعا.

III-المذهب الدوناتي عند البونيقيين

و تعود التسمية إلى الأب دونا Donatus و ينسب له المذهب الدوناتي الذي كان أتباعه يصلون في كنائسهم باللغة الكنعانية البونيقية، و قد ولد بمدينة نقرين جنوبي ولاية تبسة، والذي يسميه اللاتين دونا النقريني Donatus Negrinus و الذي مات في سجون روما بإسبانيا سنة 355 م، قبل أن يولد بسنة القديس أوغستين.

لقد رسم المؤرخ الفرنسي جوليان شخصية الأب دونا فقال: على امتداد أربعين سنة كان هذا المصارع الرهيب بارزا على الأحداث، ومن غير شك فإن التطور السريع للدوناتية يعود الفضل في تحقيقه له، كانت تتجمع في شخصيته سائر عناصر القائد والمنظم الأصيل والمستقيم، والعقائدي، والخطيب المفوه والكاتب الصلب، والمدرب والمكون للرجال، كان قاسيا على نفسه مثلما هو على الآخرين،كان أنوفا شرس الطبع، كان يفرض المواقف على أساقفته الذين كانوا يعبدونه كالإله.

-دخول المسيحية إلى المغرب :

بعث المسيح وقاومه اليهود، وبعد انتقاله إلى رحمة الله، استمرت المسيحية بين أحضان اليهودية حتى سنة 65 م، ومنذ هذا التاريخ قرر رهبان المسيحية الانفصال عن اليهودية، وأعلنوا أنهم تجاوزوها، دخلت المسيحية روما سنة 61 م، حاربها الرومان لأنهم كانوا يعتبرونها امتدادا لليهودية، التي كانت محاربة من الرومان، يقول زكي شنودة: في عهد

نيرون سلط عليهم أقسى أنواع العذاب سنة 68 م، فقد ألقى بهم للوحوش الضارية، وأمر فطليت أجسام بعضهم بالقار وأشعلت لتكون مصابيح بعض الاحتفالات التي كان يقيمها نيرون في حدائق قصره. كانوا يعتبرون بروما من الأنجاس فلا يسمح لهم بدخول الحمامات والأماكن العامة.

مات المسيح شهيدا واضطهد أتباعه فاضطروا للتخفي، واختفى الإنجيل الأصلي، وقام بعد عقود بعض أتباع المسيح بتحرير أناجيل مستوحاة من ذكريات عن طبيعة المسيح وأقواله، وكتبوها بغير لغة المسيح التي كانت اللغة الآرامية وهي إحدى اللغات العروبية القديمة، يقول ويل ديورنت في كتابه قصة الحضارة: صارت المسيحية في تعاليم بولص نصف يونانية، وأضحت في المذهب الكاثوليكي نصف رومانية، كان بولس رومانيا ، ويعتبر بولس المولود باليونان هو واضع اللاهوت المسيحي، ومن كتاباته انحدر جل الأناجيل التي حررت في نهاية القرن الأول الميلادي، فالكاثوليكية نمت في بيئة الوثنية الأوروبية فجاءت عقيدتها غير مؤسسة على التوحيد، بينما نشأت المذاهب الشرقية ومنها الدوناتية في بيئة الأديان ولهذا جاءت عقيدتها مؤسسة على التوحيد أي تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح.

يبدو أن المسيحية دخلت بلاد المغرب عن طريق مصر والمشرق منذ القرن الأول، وما يسجله المؤرخون أنها دخلت المغرب في القرن الثاني الميلادي، وارتبط دخولها باضطهاد المسيحيين من الأباطرة الرومان الذين كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة يعبدون، وبلغ أوج هذا الاضطهاد بالمغرب بين 295 و299 م في عهد الإمبراطور دقلديانوس Deocletion حيث سقط المئات من النوميديين و الموريطانيين أي المغاربة شهداء، في أثناء محاكم

التفتيش التي نصبها الإمبراطور المذكور، وخير من وصف هذا الاضطهاد العالم المصري الدكتور أحمد شلبي حيث قال أن سجل القرن الثالث يحوي صورا من أبشع أنواع تعذيب المسيحيين، وذلك في عهد الإمبراطور دقلديانوس (284- 305 م)، فقد أمر بهدم الكنائس المسيحية، وإعدام كتبها المقدسة وآثار آبائها، وقرر اعتبار المسيحيين مدنسين تسقط حقوقهم المدنية، وأمر بإلقاء القبض على الكهان وسائر رجال الدين وتجريعهم العذاب ألوانا ونفذت هذه التعليمات في جميع المناطق، فامتلأت السجون بالمسيحيين، واستشهد الكثيرون بعد أن مزقت أجسادهم بالسياط والمخالب الحديدية، أو أحرقت بالنار، وقد سمي عصره بعصر الشهداء.

صدر مرسوم 304 الذي فرض تفتيشا عاما لصالح الآلهة الرومانية الوثنية، وأجبر رجال الدين والأساقفة على تطبيق عملية التفتيش والتبليغ عن المسيحيين وحرق كتبهم، فمن عصا الأمر قتل مثل ما حدث للأسقف مارسولوس Marculus الذي رفض أمر التفتيش فنقل لقرطاج وأعدم وقد اكتشف العالم الفرنسي الأثاري بيير كورسيل في رأس الكلب كنيسة دوناتية مطمورة، وتعاون رجال الدين العديدون مع محاكم التفتيش فاعتبروا من الشعب المغاربي خونة للمسيحية.

وعندما مات الإمبراطور الظالم وجاء بعده الإمبراطور قسطنطين قام بإصدار مراسيم التسامح سنة 307 م، وعندما عين الأسقف كوسيليوس Caecillius على رأس أسقفية قرطاج، التي تشرف على المسيحية في كل المغرب، و هو الذي تعاون مسبقا مع محاكم التفتيش، اعترض الأساقفة النوميديون أن يتولى قيادة المسيحية بالمغرب خائن للمسيحية، وتمكن الأب دونا من جمع سبعين أسقفا نوميديا قدموا عريضة رفض تعيين

الأسقف الخائن، وتأسس نتيجة لذلك المذهب الدوناتي، كان النوميديون يقولون بأنهم يمثلون الشهداء، والجهة التي تعارضهم تمثل خونة المسيحية، وتجمع بأوروبا ثمانية عشر أسقفا إيطاليا وغاليا ورفضوا طلب النوميديين وأصروا على تعيين الأسقف الخائن كوسيليوس، ورفعت المسألة للإمبراطور قسطنطين فثبت الخائن في منصبه بقرطاج، وأرسل مفتشين لنوميديا فقامت معارضة من مسيحيي نوميديا جوبهت بقمع دموي سقط خلاله العديد من المسيحيين النوميديين.

ومثلما يقول جوليان: وتسبب هذا الموقف من الدولة في انتشار واسع للدوناتية، وتحولت الكنيسة الرسمية المنتصرة إلى هيئة تفتيشية فقامت بطرد الدوناتيين من الكنائس بقوة الجيش التي قتلت العديد منهم، وأمام صمود الدوناتيين ورفضهم سيطرة الإمبراطورية على الكنيسة الإفريقية، وتحولهم إلى ثورة وطنية اجتماعية، أصدر الإمبراطور قسطنطين سنة 317 م أمره باعتبار الدوناتيين خارجين على القانون، وأمر الجيش بالدخول للمدن والقرى بالأوراس ومصادرة الكنائس الدوناتية وتسليمها للكاثوليك الرسميين، وكانت أشد المواجهات دموية قد جرت في مدينة باغاي بالأوراس.

-الاختلاف اللاهوتي واللغوي بين الدوناتية والكاثوليكية:

ويختلف المذهب الدوناتي عن الكاثوليكي لاهوتيا، فهو يؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح مثل المذاهب المشرقية المصرية والسورية، ويقول الدكتور شلبي: الطبيعة الواحدة للمسيح تقول بأن المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، ففي المسيح أقنوم واحد تم بعد الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج وهو مذهب أقرب إلى التوحيد، أما الكاثوليكية فمذهب

الطبيعتين والمشيئتين وقد اعتنقته كنيسة روما التي تقول بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين هما الإله والإنسان. كما تختلف الدوناتية عن الكاثوليكية لغويا وثقافيا، فلغة المذهب الدوناتي هي البونيقية أي الكنعانية، فالدوناتيون يصلون في كنائسهم بالبونيقية، لأنه توجد بالمغرب الكبير منذ القدم وقبل الإسلام لغة فصحى هي الكنعانية البونيقية التي تعتبر لغة الحضر والدواوين والعبادات، محاطة بلهجات بربرية شفوية ، وكلاهما ينتميان إلى أرومة واحدة هي اللغات السامية/الحامية ، وخير من يوضح هذه المسألة هو المستشرق الفرنسي هنري باسيه H.Basset حين يقول: إن اللغة البونيقية لم تختف من المغرب إلا بعد دخول العرب، ومعنى هذا أن هذه اللغة بقيت قائمة هذه المدة بالمغرب سبعة عشر قرنا وهو أمر عظيم. أي أن هذه اللغة استمرت قائمة كلغة فصحى بالمغرب منذ دخول الفينيقيين المغرب في الألف الثانية قبل الميلاد، وحتى الفتح الإسلامي ونشر اللغة العربية العدنانية التي خلفت طبيعيا البونيقية العروبية، ومعنى هذا أن الرومان الذين سيطروا على المغرب منذ عام 146 ق.م . لم يستطيعوا فرض لغتهم وثقافتهم الرومانية على سكان المغرب الكبير، وهذا يؤكد شرقيتهم بل و عروبيتهم.

وأمام إصرار الدوناتيين على موقفهم، وازدياد عقيدتهم صلابة في إطار وطنية تتوق للتحرر من الاستعمار الروماني، وتجاوب الشعب معهم، اضطر الإمبراطور قسطنطين سنة 321 م إلى إصدار تعليمات بوقف عمليات القمع ضد الدوناتيين الذين رفعوا شعار (نحن أبناء الشهداء في مواجهة أبناء الخونة)، كما أطلق الأب دونا صيحته المشهورة (لا علاقة للمسيحية بالإمبراطور والإمبراطورية، الله أرسل المسيح لإنصاف المستضعفين). لكن اعتبار المذهب الدوناتي استمر غير شرعي، وأمام شعبية دونا أمرت

الإمبراطورية بإلقاء القبض عليه ونقله إلى إسبانيا، حيث سجن في سجون الرومان ومات هناك بالسجن سنة 355 م.

-الدوناتيون وثورة فيرموس وغيلدون :

امتد نفوذ الدوناتيين إلى دعم الثورات البربرية ضد الاستعمار الروماني، فلجأ الثائر فيرموس سنة 372 م للدوناتيين طالبا دعم ثورته فدعموه، فقد استطاع هذا الثائر بفضل الدوناتيين تحقيق تحالف بين بعض القبائل البربرية، وشن حربا ضروسا على الجيوش الرومانية فاحتل عاصمة موريتانيا مدينة شرشال و إيكوسيوم (مدينة الجزائر)، ومثلما يقول جوليان أن فيرموس كان مسيحيا ومن غير شك كان دوناتيا، أرسلت روما جيشا بقيادة أفضل قادتها وهو تيودوس فحط في مدينة جيجل، ونظرا لعدم التوازن بين القوتين هزم جيش فيرموس سنة 375 م، وتمكن الرومان من القضاء على فيرموس بالتآمر مع أخيه غيلدون فانتحر فيرموس عندما علم بخيانة أخيه، وفي 376 م أصدر الإمبراطور غراتيان Gratien أمرا بتجديد منع المذهب الدوناتي بعد ثبوت مشاركته في ثورة فيرموس.

ويبدو أن غيلدون القائد البربري عندما شعر بأن أخاه لا يستطيع الصمود أمام الجيوش الرومانية، فكر في حيلة يبقي فيها زمام الأمور بين البربر بدل القضاء على العائلة، فقرر التضحية بأخيه فيرموس متظاهرا باستعداده للتعاون مع الرومان، ورحب الرومان بذلك فعينوه كونت إفريقيا سنة 386 م، وما أن سيطر على الأمور حتى أعاد الاعتبار للمذهب الدوناتي وانصاع حلفاؤه الرومان لقراره، وهذا يشير إلى أن غيلدون لم يكن

خائنا، وإنما مناورا، كان يعد العدة مع الدوناتيين لتحرير الشعب البربري من الاحتلال الروماني، واستمر في إعداده من 376 م وحتى سنة 396 م و هي السنة التي أعلن فيها الثورة ضد الرومان مدعوما من الدوناتيين، ولم يستمر غيلدون في موالاته للسادة الرومان طويلا بعد تبوئه المناصب العسكرية الرومانية في المغرب، بل سرعان ما انقلب عليهم قائدا ثورة بربرية جديدة سنة 396 م، واستخدم الرومان وسيلتهم التآمرية بتحريض أخيه مقزيل ضده وتكررت المأساة وانتحر غيلدون .

ويقول ش أ جوليان: كان غيلدون يملك بين يديه أقوى سلاح وهو منع تزويد روما بالقمح، وفي إمكانه تجويع روما وإيطاليا، وفي سنة 396 م أعلن الثورة وأوقف إرسال القمح، وقد قام الوندالي ستيليسون Stilicon حاكم غرب الإمبراطورية بالاحتياط للكارثة فصادر قمح الغالة وإسبانيا، واجتمع مجلس الشيوخ الروماني وأعلن غيلدون عدوا لروما.

وخوفا من تجويع الشعب الروماني جندت روما جيشا ضخما لمحاربة غيلدون، وأسندت قيادته لأخ آخر لغيلدون وهو ماقزيل فهزم غيلدون، وخشي الرومان من تمرد ماقزيل فدبروا له عملية اغتيال خفية ونظرا لأهمية غيلدون وثورته فقد نظم الشاعر الروماني كلوديان Claudien قصيدة طويلة في هذه الثورة ركز فيها على الرعب الذي اجتاح الإمبراطورية من جراء المجاعة التي تسبب فيها هذا الثائر البربري الدوناتي، وكيف هب الإله الروماني نيبتون في سماء إفريقيا فأغرق غيلدون في أمواجه، ومكن الإمبراطوريين ثيودوس وأبيه اللذين صارا إلهين رومانيين، وكيف اعتبر ستيليسون ماقزيل غير مشرف لروما بأن يقود جيشا رومانيا ضد المتمردين وقد لخص هذا الشاعر الروماني قوة هذه

الثورة البربرية، وأهمية المغرب في حياة الشعب الروماني واقتصاده، والدور الذي تلعبه الأرستقراطية الزراعية الرومانية بالمغرب و لوتيفوندداتها في تمويل روما بالقمح النوميدي، والتي تقع تحت حماية المذهب الكاثوليكي، وتعتبر الدوناتية عدوها اللدود.

-ظهور القديس أوغستين ومحاربته للدوناتيين :

وظهر القديس أوغستين، فوجد بلاد المغرب الكبير قد صارت كلها دوناتية، و يذكر أن القديس أوغستين قد ولد مواطنا رومانيا، فهو بذلك من رومان إفريقيا، عاش مخلصا ثابت الإخلاص للحضارة الرومانية، و قد اشتد القمع القاسي الذي مورس ضد أتباع غيلدون ليشمل الدوناتيين أيضا، واعتقل أوبطا أسقف تيمقاد الذي كان مستشارا لغيلدون وروح الثورة البربرية، واغتيل في السجن، واعتبر شهيدا من الدوناتيين، وعن جوليان يذكر ب.مونسو P.Monceaux أنه كانت الدعاية المنطلقة من اللوتيفوندات مدعومة بقوة ملاكي الأرض الكبار الذين يعملون على اعتناق مزارعيهم الكاثوليكية، وتحقيق الوحدة الدينية في أراضيهم بنوميديا، ويعقب جوليان بما يلي: إن هؤلاء السادة يرون أن الكاثوليكية هي الضمان لرضوخ البروليتاريا الفلاحية.

وهنا برز القديس أوغستين فطالب باجتماع مجلس الأساقفة وأملى عليه القرارات، وراح يرسل الشكاوى ضد الهراطقة ويعني بهم الدوناتيين، ومثلما يقول جوليان: كان يعد للتدخل المباشر للسلطة في النزاع الديني، وبطلب من مجمع الأساقفة الكاثوليك بقرطاج محاربة الهراطقة، وقرر الإمبراطور اعتبار الدوناتية هرطقة وخارجة على القانون في 12 فبراير سنة 405 م، وهكذا تدخل القمع الرسمي فزاد من الانتقام الفردي، وراح

الأساقفة الكاثوليك يبلغون للشرطة أسماء خصومهم الدوناتيين، وانطلق ملاك الأرض بنوميديا، بما فيها الإقطاعية التي استأجرها أوغستين، ينشرون نشاطهم المحموم ضد الزندقة، لكن في نوميديا قاومت الدوناتية القمع بشكل قوي مما جعل أوغستين يحذر الإمبراطور من قوتها، وظهر الدائريون من جديد يهاجمون اللوتيفوندات، واندلعت الثورة الاجتماعية. ويلاحظ من هذا النص أن أوغستين كان يملك لوتيفوندية من أرض الفلاحين المغاربة المسروقة.

-ندوة قرطاج :

وأمام هذا الوضع الذي رآه مناسبا، عمل أوغستين على عقد ندوة تحت شعار توحيد الكنيسة، واعتمد أن يكون الأساقفة الكاثوليك بها أكثر من الأساقفة الدوناتيين، كان عدد الأساقفة 565 أسقف، منهم 286 كاثوليكي و279 دوناتي، وكانت الدعوة تقول بأن الجدال سيدور بين المذهبين، والطرف الذي يتغلب سيعمم مذهبه بإفريقيا، ويبدو أن الدوناتيين كانوا متغلبين على الكاثوليك بالحجة مرتكزين على حقيقة أن المسيحية والتي يؤمنون بها تنصف المقهورين، والشعب المغاربي مقهور من الاستعمار الروماني ومن اللوتيفوندة التي تمثله، ويبدو أيضا أن الكثير من الأساقفة الكاثوليك المغاربة الشبان بدأوا يميلون للحجج الدوناتية، وعندها غادر أوغستين القاعة و قصد الوالي الإمبراطوري بقرطاج و اتفق معه على أن يوقف الحوار، وترسل القوات العسكرية لتعتقل الأساقفة الدوناتيين وهذا هو الذي حدث يوم 26 جوان 411 م، ثم حل المذهب الدوناتي بأمر إمبراطوري فصودرت كنائسه وممتلكاته لصالح الكاثوليكية، و يعلق جوليان فيقول: لقد وجد الدوناتيون أنفسهم أنهم ليسوا في ندوة ولكن أمام محكمة

يرأسها الوالي الروماني مارسيلينوس Marcellinus الذي يعتبر كاثوليكيا متعصبا يتهمونه بعديم الذمة. ومن غير شك فإن هذا الوالي كان يتصرف بنصائح أوغستين.

استمر الدوناتيون يمارسون طقوسهم في السر تحت قيادة غوديتتيوس أسقف تيمقاد، وأميريتوس أسقف شرشال، وانطلق الثوار الدائريون يغتالون الكولون، ويحرقون اللوتيفوندات، وردت السلطة بالقمع، ومثلما يقول جوليان: وهكذا العنف ولد العنف في دائرة جهنمية، و بفضل أوغستين خرج الكاثوليك في كفاحهم منتصرين، لكن الكثير من الانضمامات للكاثوليكية لم تكن سوى صورية شكلية، لقد انطلق حقد أصم كامن ضد الإمبراطورية والكنيسة الرسمية والأرستقراطية الزراعية المتضامنة في القمع الذي استمر بلا رحمة، إلى أن انهارت هذه لسلطة الثلاثية تحت ضربات الوندال.

كان أوغستين يؤيد بل ويدعو لقمع الدوناتيين، يقول: ينبغي أن تتدخل السلطة العامة وتزرع الرعب لإعادة الهراطقة للأصالة المسيحية، باسم كلمة المسيح أجبروهم بالقوة على الدخول. ومثلما يقول جوليان كان أوغستين يعتبر قهر الدولة مبررا وشرعيا، مات أوغستين في عنابة وهو يدافع عن الاستعمار الروماني في مواجهة الغزو الوندالي، وخالف بذلك طموحات الشعب المغاربي الذي رحب بالوندال أملا في تخليصه من ظلم روما على يد هؤلاء القادمين الجدد، من باب عدو العدو صديق.

-مذهب الوندال المسيحي الأرياني (الأريوسي) :

من الغريب أن الوندال يدينون بالأريانية نسبة إلى مؤسسها المغاربي أريوس المولود ببرقة ليبيا سنة 256 م، والمتوفى سنة 336 م، أي قبل تسعة عشر عاما من وفاة دونا، برقة في العهد الرماني كانت تسمى قورينا CYRENAIE .

ومن غير شك فإن تنسيقا ما كان قائما بين أريوس ودونا المغاربيين، هذا بالجزائر الحالية وذاك بليبيا الحالية تحت الاستعمار الروماني، تتفق الأريانية أي الأريوسية، مع الدوناتية في الطبيعة الواحدة للمسيح، أي في نكران صفة الألوهية عن المسيح، ويرتبط المذهبان بمذهب الأنطاكية مذهب بولس الأنطاكي السميساطي الموحدة أيضا، وفي أثناء بعث الإسلام في القرن السابع الميلادي، كانت الأريوسية منتشرة بالشام وبشمال الجزيرة العربية، وفي مراسلة محمد صلى الله عليه وسلم لهرقل إمبراطور الرومان، ذكر سيد المرسلين الأريوسية في رسالته حين قال : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. فالوندال الذين يدينون بمذاهب الأريانية، أي الأريوسية، وجدوا في مذهب الدوناتية نفس العقيدة الموحدة فتعاونوا معهم مذهبيا وحرروهم سياسيا من الاستعمار الروماني اللوتيفوندي.

وبالفعل فقد تحققت أماني الشعب المغاربي عندما استطاع في بداية العهد الوندالي استرداد أراضيه المسروقة وتصفية اللوتيفوندات، كما استطاع الدوناتيون ممارسة طقوسهم بحرية، واسترداد كنائسهم، يقول المؤرخ المصري السيد عبد العزيز السالم: انضم

الدوناتيون باعتبارهم خصوما للكاثوليك إلى جانب الوندال، إذ اعتبروهم مخلصين لهم من نير الرومان، ووجدوا في دخولهم البلاد سيفا مسلطا على خصومهم الذين أذاقوهم من صنوف الاضطهاد ألوانا، كذلك لم يتردد المغاربيون الذين طالما عانوا من استبداد الرومان بهم وتعسفهم، في الانضمام إلى جانب الغزاة منذ اللحظة الأولى .

-كتب ومؤلفات الدوناتية :

كان الأب دونا هو الكاتب الكبير، الذي ألف كتابا مهما عنوانه (الروح القدسية)، لكنه لم يصلنا بسبب حرق الكاثوليك تحت قيادة أوغستين لسائر الكتب الدوناتية، وقد ورد ذكر هذا الكتاب من بعض رجال الدين الكاثوليك، كما ورد من هؤلاء ذكر كتب لأساقفة دوناتيين من أمثال: غودانتيوس أسقف تيمقاد الذي وصف بأنه رجل من حديد، حيث تمكن من منع مصادرة كنيسته مهددا بأنه سيحرقها ويحرق نفسه معها إن تقرر مصادرتها ولم تصادر بالفعل، وانطلق في توجيه رسائل جدلية قوية إلى أوغستين لم تصلنا طبعا، وكذلك كتابات بيتليانوس أسقف قرطا (سيرتا) الذي وصف بأنه خطيب مفوه، ورئيس بالفعل للمذهب، الذي اشتهر بخطبه، وبرسائل الهجو التي وجهها لأوغستين، و بكتاب عن التعميد، لكن كل هذه الكتب وردت كإشارات من بعض الكاثوليك، مما يدل على أنه كانت هناك خطة منظمة قام بها أوغستين والكاثوليك قضت على هذه الكتب والمؤلفات الدوناتية التي كتبت بالفينيقية واللاتينية، ويذكرنا بهذا الموقف جريمة حرق مكتبة قرطاج الكبيرة عندما دمرت على يد الجيش الروماني سنة 146 ق.م .

تحول المذهب الدوناتي إلى ثورة ضد الظلم الاجتماعي والاحتلال الأجنبي، ولاقى صدى في الأوساط التواقة لاستقلال إفريقيا، وهو يشبه المذاهب القبطية والسورية، المؤسسة على الطبيعة الواحدة للمسيح، وقد اختلف عن الكاثوليكية في عدة نقاط، أهمها اللغة، فلغة الدوناتية ليست اللاتينية بل البونيقية ، كما اختلف عنها في وقوفه مع مطالب عمال الفلاحة المغاربة ضد اللوتيفوندات، هذه المطالب التي انضوت تحت المظلة الدوناتية، وبالرغم من أن هذا المذهب محافظ متشدد عقائديا، إلا أنه يصنف كمذهب تقدمي اجتماعيا، حيث يرفض استعمال المسيحية من طرف الإمبراطورية الرومانية التي تتناقض أعمالها مع طموحات الفقراء.

إن المؤرخين الأوروبيين يؤمنون بأن أوغستين هو قديس الاستعمار الروماني ومن بعده الفرنسي، يقول بوجولا POUJOULA الصديق الحميم للماريشال بيجو قائد جيش الاحتلال الفرنسي للجزائر، في تصريح له أمامه، وهو يزور الجزائر سنة 1844 م: تحية يا كنيسة إفريقيا الحديثة، ابنة سيبريان وأوغسطين، لقد استخرجت من القبور بواسطة عبقرية وإيمان بلدي، إنني أعتز شامخ الأنف لأنني أراك بعثت من جديد تحت علم بلدي، إن حربنا بإفريقيا هي امتداد للصليبية. ويذكر شارل أندري جوليان أن البابا أرسل رسالة تأييد لاحتلال الجزائر قال فيها: ضرورة افتكاك الأرض التي شرفها القديس أوغستين من البرابرة. كما أعطى الكاردينال لافيجري اسم أم أوغستين القديسة مونيكا (سان مونيك) لقرية من القريتين اللتين بناهما في الشلف لإيواء اليتامى الجزائريين لمجاعة 1868.

-مصير الدوناتية :

وسقط الوندال وعاد البيزنطيون، وتعاملوا مع المذهب الدوناتي بالمنع، وبعد قرن جاء العرب العدنانيون المسلمون للمغرب، وحدث الفتح الإسلامي، هل استمر الدوناتيون طوال هذا القرن يمارسون مذهبهم في السر فجاء الإسلام فاعتنقوه؟ أم أن المسلمين الفاتحين وجدوا المذهب الكاثوليكي بالمغرب معزولا بين المحتلين البيزنطيين، منبوذا من المغاربة لأنه يمثل الاستعمار، فتلاشى بمجرد أن اختفت السلطة التي كانت تحميه؟ ولعل هذا هو الذي يفسر لماذا اختفت المسيحية من المغرب العربي، لقد استمر المسيحيون بالمشرق العربي، لأنهم كانوا يمارسون مذاهب مشرقية شبيهة بالمذهب الدوناتي بالمغرب نابعة من بيئتهم وليست ممثلة للمستعمر، ويذهب بعض المؤرخين الأوروبيين إلى أن المذهب الدوناتي كان السبب في جعل الإسلام يلغي المسيحية بالمغرب الكبير، يقول المؤرخ الديني البريطاني فريند W.H.C.Frend في كتابه الكنيسة الدوناتية: إن الدوناتية كانت المقدمة لإلغاء الإسلام للمسيحية وللثقافة الرومانية، إنه التفقير التدريجي للمجتمع الفلاحي الذي ولد اليأس والثورة، والكنيسة الدوناتية لم تكتف بدعمها وإنما هيجتها، يكفي ملاحظة دعمها لثورة فيرموس، ولعلاقاتها مع الدائريين، لمعرفة أن الدوناتية كانت تمثل العقيدة في شكلها المتطرف .

الفصل الثاني:

قبيلة الأجدار البونيقية و تواجدها

I-مدخل في الأصول البونيقية للأجدار

البونيقيون أو البونيون أو الشناعنة أو كما سماهم رواة العصر الإسلامي الوسيط بالأفارق، و هم القبائل المغاربية ذات الأصول الكنعانية الفينيقية، و تعود لفظة كنعان إلى الفعل (كنع) و هو فعل سامي قديم موجود في الكنعانية و العبرانية و العربية ، و يعني (الهبوط للأسفل) ، و في اللغة العربية (كنع النجم) أي مال للغروب، و له مرادف آخر في الكنعانية و هو الفعل بوأ و منه اللفظ البونيقي (مبأ هشمش) أي مغرب الشمس، و تقابلها في العربية (باء،يبوء) أي ينزل و يهبط، فهي كذلك تعني الغروب، و بالتالي فلفظ كنعان يعني أرض الغروب و الكنعانيون هم سكان أرض الغروب أو بالتحديد المغاربة و تقابلها ألفاظ أخرى أطلقها الفينيقيون الشرقيون على الفينيقيين الغربيين كالماحوريم و المعربيم و كلها ألفاظ تعني سكان الغرب أو المغاربة، و قد وردت في كتابات القديس أوغسطين بصيغة (شنعان) عندما ذكر بأنه إذا سأل أحد فلاحي نوميديا عن أصولهم فسيجيبونه أنهم شنعانيون (Chanani) أي كنعانيون.

-الشعوب التي سكنت شمال افريقيا :

يعد هيرودوت أقدم المؤرخين الذين ميزوا في إفريقيا بين السكان الأصليين و السكان غير الأصليين ويعتقد هيرودوت أن ليبيا تقطنها أربع أمم لا أكثر ، اثنتان منها أصليتين، فالليبيون (البربر) في الشمال و الاثيوبيون (السود) في جنوب ليبيا أصليون، أما الفينيقيون و الاغريق ، فانهم استقروا فيها فيما بعد، وبعد سالوست بكثير نجد المؤرخ

البيزنطي بروكوبيوس الذي تحدث عن هجرة فينيقية نحو بلاد المغرب بعد دخول العبرانيين بلاد الشام ويعتقد نفس المؤرخ ان ليبيا قبل هؤلاء كانت اهلة بشعوب اخرى ، كانت هنا منذ عهود قديمة جدا، وكان نظر اليها على انها الاصلية ، لكن عن هؤلاء الأصليين لا يقول شيئا ، و تعد رواية بروكوبيوس هذه الأكثر تداولا ، ونجد اثرها واضحا عند المؤرخين المسلمين الاوائل مثل المسعودي و البكري و ابن الاثير الذين أخلطوا أحيانا بين الأفارقة و البربر فقالوا أن اصل البربر من الشام ، و أنهم طردوا من فلسطين أيام داود الذي قتل ملكهم جالوت.و يعود البربر إلى أبناء فوت بن حام الذين سكنوا أرض ليبيا.

و من هنا نرى التمايز بين البربر و البونيقيين (الأفارقة) في شمال إفريقيا و أنهم رغم تعايشهم مع بعضهم و اتحداهم في شعب واحد و دولة واحدة إلا أن كل واحد منهم تميز بارتباطه بأصوله و لغته و ثقافته.و حسب الطبري فإن جد العرب الأكبر هو عمليق، وعمليق كان له نسل منتشر سمي بأسماء كثيرة منها العماليق والعموريين والكنعانيين والفينيقيين والأموريين والهكسوس.قال الطبري في كتاب (تاريخ الأمم والملوك): عمليق وهو عريب، وإن عمليق أول من تكلم بالعربية ،وقال الطبري أيضا في نفس الكتاب: عمليق أبو العماليق، كلهم أمم تفرقت في البلاد، وكان أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم ، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون.

و تشير المصادر الإسلامية الوسيطة إلى وجود ثلاثة عناصر للسكان في شمال إفريقيا زمن الفتح العربي الإسلامي وهم: البربر ، الأفارقة أو الأفارق (البونيقيون)، البيزنطيون (الروم).

و قد تحدث البكري عن تاريخ الأفارقة (البونيقيين) ببلاد المغرب القديم و عن تأسيسهم قرطاج و بعض ملوكهم ،يذكر البكري: إن الذي بنى قرطاجنة ديدون الملك زمن داوود عليه السلام. وعليه يكون مؤسسها رجلا وتأسيسها في القرن الحادي عشر قبل الميلاد لأن داوود كان بين سنتي (1055 - 1014) وفي ابن خلدون- نقلا عن المؤرخ الروماني هروشيوش- يقول : إن بناءها كان على يد ديدن بن أليثا، وأنه من نسل عيصو بن اسحاق ومن المؤرخين من يقول أسسها الطبقة العليا من الفينيقيين.

كما يتحدث ابن خلدون عن تأسيس مملكة الأفارق البونية القديمة فيقول :كان بناء قرطاجنة هذه قبل بناء رومة باثنتين وسبعين سنة، قال هرشيوش: على يدي ديدن بن أليثا من نسل عيصو بن إسحاق. وكان بها أمير يسمى ملكون وهو الذي بعث إلى الإسكندر بطاعته عند استيلائه على طرسوس، ثم صار ملك إفريقية إلى أملقا (حملقار) من ملوكهم فافتتح صقلية وهاجت الحرب بينه وبين الرومانيين وأهل الاسكندرية بسبب أهل سردانية، وذلك لخمسين سنة من بناء رومة، ثم وقعت السلم بينهم وهي السلم التي وفد فيها عتون من ملوك إفريقية على أنطريطش ملك مقدونية وإسكندرية وهو ملك الروم الأعظم. ثم ولى بقرطاجنة أملقا ابنه أنبيل (حنبعل) فأجاز إلى بلاد الإفرنج وغلبهم على بلادهم، وزحف إليه قواد رومة فوالى عليهم الهزائم وبعث أخاه أشدربال إلى الأندلس فملكها، وخالفه قواد الرومانيين إلى إفريقية بعد أن ملكوا من حصون

صقلية أربعين أو نحوها، ثم أجازوا إلى إفريقية فملكوها وقتلوا غشول خليفة أنبيل فيها وافتتحوا مدينة جردا. وخرج آخرون من قواد رومة إلى الأندلس فهزموا أشدربال واتبعوه إلى أن قتلوه. وفر أخوه أنبيل عن بلادهم بعد ثلاث عشرة سنة من إجازته إليهم، وبعد أن حاصر رومة وأثخن في نواحيها فلحق بإفريقية ولقيه قواد أهل رومة الذين أجازوا إلى إفريقية فهزموه وحاصروه بقرطاجنة، حتى سأل الصلح على أن يغرم لهم ثلاثة آلاف قنطار من الفضة فأجابوه إليه.

و من ثم يواصل ابن خلدون تحدثه عن حنبعل ملك الأفارقة البونيقيين فيقول : وسكنت الحرب بينهم ثم ظاهر بعد ذلك أنبيل صاحب إفريقية ملوك السريانيين على حرب أهل رومة فهلك في حربهم مسموما. وبعد أن تخلص أهل رومة من تلك الحروب رجعوا إلى الأندلس فملكوها، ثم أجازوا البحر إلى قرطاجنة ففتحوها وقتلوا ملكها يومئذ أنبيل وخربوها لتسعمائة سنة من بنائها وسبعمائة لبناء رومة ، ثم دارت الحرب بين أهل رومة وملك النوبة، واستظهر ملك النوبة بالبربر بعد أن هزمه أهل رومة واتبعوه الى قفصة فملكوها واستولوا على ذخيرتها، وهي من بناء أركلش الجبار ملك الروم، وهزمهم أهل رومة فخافهم ملك البربر من ملوك النوبة إلى أن هلك في أسرهم.

و قد بين ابن خلدون المغالطات التاريخية التي يقع فيها بعض المؤرخين العرب في خلطهم بين البربر و الأفارقة فمن جملة الخلط الذي وقعوا فيه هو ربطهم بني كنعان بالبربر، ففي الواقع أن الكنعانيين (الفينيقيين) سكنوا شمال إفريقيا إلى جانب البربر إلا أنهم لم يكونوا بربرا بل قد حافظوا على ثقافتهم و لغتهم و كتابتهم حتى الفتح الإسلامي و بعده، و الأمر الآخر الذي وقعوا فيه هو ربطهم البربر بأنهم بنو جالوت الكنعاني الفلسطيني و

في نفس الوقت ذكرهم أن البربر كانوا جيلا قديما سكن بلاد المغرب ثم لحقهم بعد قرون عديدة بنو كنعان الذين جاؤوا بعد أن طردهم يوشع بن نون، و القول أن البربر الأوائل أبناء جالوت هو مغالطة، فجالوت قد عاصر النبي داوود الذي جاء بعد يوشع بن نون بفترة طويلة جدا، هذا ما يجعل بني جالوت هم الكنعانيين الذين أجلاهم داوود عليه السلام و الذين لحقوا بني كنعان الأوائل الذين أجلاهم يوشع بن نون قبلهم و الذين عاشوا إلى جانب البربر محتفظين بجذورهم و لسانهم و ثقافتهم.

يقول ابن خلدون : واعلم أن الخلاف في نسب البربر طويل وقد تركنا جله اختصارا وأشبه هذه الأقوال بالصحة ما نقلناه أولا مما يدل على أن جيل البربر من ولد حام وأنهم جيل قديم قد سكنوا المغرب عندما تناسلت ذرية نوح عليه السلام وانتشرت الخليقة على وجه الأرض ثم تلاحقت بهم بقية بني كنعان من الشام عندما أجلاهم يوشع بن نون عليه السلام أولا ثم داود عليه السلام ثانيا قال ابن خلدون بعد تزييف القول بأن البربر من ولد جالوت بالخصوص أو من العرب.

و لكن ابن خلدون كان قد ذكر في كتابه أنه من عادة البربر التأثر بالشعوب و الحضارات المتعاقبة عليهم و انتحال أنسابهم فقد ذكر تأثرهم بالرومان و لسانهم ثم انتحال قبائل مثل زناتة و صنهاجة للنسب العربي بعد الفتح الإسلامي و الأمر يشابه محاولة انتسابهم للقبائل الكنعانية النازحة إليهم و التي جاورتهم في نفس الأرض حيث يقول :و أما القول بأنهم من ولد جالوت أو العماليق، و أنهم نقلوا من ديار الشام و انتقلوا، فقول ساقط يكاد يكون من أحاديث خرافة، إذ مثل هذه الأمة المشتملة على أمم و عوالم ملأت جانب الأرض، لا تكون متنقلة من جانب آخر و قطر محصور، و البربر معروفون

في بلادهم و أقاليمهم متحيزون بشعارهم عن الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام.

-إرتباط الكنعانيين بأرض المغرب القديم حسب اليوبيلات:

في مصادر الأديان السماوية اليهودية و المسيحية، و حتى الإسلامية نجد أن جميع سكان الأرض انحدروا من نسل النبي نوح عليه السلام، و هم أبناؤه الثلاثة الذين نجوا معه بعد الطوفان، و هم على التوالي سام و حام و يافث، و قد أوحى الله إلى النبي نوح لكي يقسم الأرض على نسل أبنائه لكي يتم تعميرها من جديد بعد فناء سكانها، فقسم نوح الأرض بين بنيه و أعطى لسام أراضي شبه الجزيرة العربية و الهلال الخصيب، و أعطى لحام الأرض السمراء و هي إفريقيا ، و أعطى ليافث الأراضي التي تلي البحر الأسود و هي أوروبا و أراضي آسيا الأخرى، فقد كان سام هو أبو العرب و العبرانيين ، و حام هو أب المصريين و الكوشيين و الليبيين و الكنعانيين، أما يافث فقد كان أب الشعوب الأخرى كالأوروبيين و المغول و الأتراك و غيرهم.

و كان لحام أربع أبناء و هم كوش (أب النوبيين) و مصرايم (أب المصريين) و فوت (أب الليبيين أو البربر) و كنعان (أب الكنعانيين)، و قد هاجر حام و بنوه إلى الأرض المكتوبة لهم خصوصا بعد وقوع ما وصفته التوراة بلعنة كنعان، و هي حين رأى حام عورة أبيه نوح عليه السلام و أخبر بها إخوته فوقعت لعنة النبي نوح على ذرية كنعان بن حام، و حسب سفر اليوبيل من مخطوطات قمران و الذي يدعى سفر التكوين الصغير فقد ورد السياق التالي :

قسم حام (أرضه) بين أبنائه: في الشرق، كان القسم الأول لكوش. وغربيه حصة مصراييم. وغربي هذا حصة فوط. وغربي هذا حصة كنعان. وغربي هذا البحر.

فقد كانت الأرض المكتوبة لكنعان محددة غرب أرض فوط (أب الليبيين)، و أرض كنعان حسب هذا الوصف كانت تمثل فعلا الأراضي البونيقية حتى المحيط الأطلسي، و كان من المفترض أن يسكن كنعان أرضه و ورد بأن بني نوح اتفقوا على الأراضي المكتوبة لهم و اتفقوا على لعن كل من يخرق هذا العهد، و هذا حسب ما ورد:

وهكذا وزع أبناء نوح (الأراضي) بين أبنائهم بحضور نوح أبيهم الذي جعلهم كلهم يقسمون ويلعنون كل من يحاول أن يحتل حصة لم تعط له بالقرعة. فقالوا كلهم: آمين، آمين ! عنهم وعن أبنائهم، إلى الأبد وإلى جميع الأجيال حتى يوم الدينونة حيث يدينهم الرب بالسيف والنار بسبب نجاسة ضلالهم المضرة، بعد أن ملأوا الأرض بالتجاوز والدنس والزنى والخطيئة.

و عندما ارتحل حام و بنوه نحو الأرض المكتوبة لهم أي إفريقيا، رأى ابنه كنعان أن أرض لبنان حتى نهر مصر هي مكان جيد للاستقرار رغم أنها لم تكن مكتوبة له بل لأبناء سام لكنه قرر الاعتداء عليها حسب ما ورد في اليوبيل:

مضى حام مع أبنائه إلى الأرض التي تخصه والتي نالها حصة له في منطقة الجنوب. ورأى كنعان أن أرض لبنان حتى نهر مصر طيبة، فلم يذهب إلى ميراثه (الواقع) باتجاه الغرب (قرب) البحر، بل ظل في أرض لبنان من الشرق إلى الغرب، من شاطئ الأردن إلى شاطئ البحر.فقال له أبوه حام وشقيقاه كوش ومصراييم: أقمت في أرض ليست

أرضك، وما آلت إليك بالقرعة. لا تفعل هكذا، لأنك إن فعلت هكذا ستهلك في هذه الأرض أنت وأبناؤك وتلعنون كمتمردين، لأنكم تقيمون فيها (بروح) تمرد. سيهلك أولادك بسبب (هذا) التمرد وتقتلع أنت إلى الأبد. لا تقم في مسكن سام، لأن (هذه الأرض) قد آلت إلى سام وأبنائه بالقرعة التي ألقوها. أنت ملعون وستكون ملعونا بين كل أبناء نوح بسبب اللعنة التي التزمنا بها حين أقسمنا بحضرة الديان القدوس ونوح أبينا.ولكنه لم يسمع لهم، بل أقام في أرض لبنان، من حماة حتى مدخل مصر، هو وأبناؤه إلى هذا اليوم. لهذا سميت هذه الأرض كنعان.

و بالتالي فإنه حسب روايات اليوبيلات اليهودية فقد حلت اللعنة على ذرية كنعان لأنهم سكنوا أرضا لا تحل لهم و تركوا أرضهم في شمال إفريقيا غرب أرض فوت الذي استولى أبنائه (أي الليبيين البربر) لاحقا على الأراضي المكتوبة لكنعان حتى المحيط، و مما ورد نجد تأثير الرواية اليهودية على تبرير غزوهم لأرض كنعان و طردهم أبناءها منها.

-نسب الأجدار من جرجيس ابن كنعان :

كنعان بن حام وفقا لسفر التكوين هو ابن حام وحفيد نوح وأبو الكنعانيين.وأحفاد كنعان بحسب الكتاب المقدس العبري هم:الصيدونيون، الحيثيون، اليبوسيون، الأموريون، الجرجاشيون، الحويون، العرقيون، السينيون، الأرواديون، العماريون ، الحماتيون وذلك حسب ما جاء في سفر التكوين: وكنعان ولد صيدون بكره وحيثا واليبوسي والأموري والجرجاشي والحوي والعرقي والسيني والأروادي والعماري والحماتي.

حسب سفر التكوين ، فإن نوح قام بلعن كنعان ونسله، اللعنة مذكورة في هذا السفر وتتعلق بسكر نوح وما صاحبه من فعل مخزي قام به ابنه حام، أبو كنعان، الجدل حول سبب توجيه نوح للعنة على كنعان في حين أن الفعل المخزي قام به حام، وما زال ذلك الجدل قائما بعد ألفي عام.

أنجب كنعان بن حام عدة أبناء بينهم جرجيس (جرجاش) الذي فر حفدته إلى شمال إفريقيا بعد طرد يشوع بن نون للكنعانيين من أرضهم، و قد سبقهم أبناء جلدتهم من تجار البحر الفينيقيين إلى هناك عام 1200 ق.م بينما أبناء جرجيس بن كنعان تم تهجيرهم إليها بعد ذلك و من الجرجيسيين ينحدر أجدار بني قطوبيم ببلاد المغرب القديم.

-هجوم النبي يوشع بن نون على أرض كنعان :

استمرت لعنة كنعان تطارد بني كنعان الذين سكنوا في أرض سام، فقد طردهم النبي يوشع بن نون من أرضهم، و قد كان من أنبياء بني إسرائيل، و تلميذا من تلاميذ كليم الله موسى عليه السلام، وذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة سيدنا موسى والخضر وذلك في قوله تعالى: وإذ قال موسى لفتاه. و قوله: فلما جاوزا قال لفتاه. وثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: من أنه يوشع بن نون.

وقد دخل بنو إسرائيل إلى أرض فلسطين لأول مرة بعد خروجهم من فترة التيه على يد نبي الله يوشع بن نون، الذي يعد أول من فتح بيت المقدس. ذكر ابن كثير، في كتابه

قصص الأنبياء أنه يدعى يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب، بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وأهل الكتاب يقولون: يوشع ابن عم هود، و لم يخرج أحد من التيه، الذي عاقب الله به بني إسرائيل بعد رفضهم لقتال القبائل الكنعانية التي كانت تسكن المدينة المقدسة في فلسطين وكانت مدة التيه 40 عاما مات فيها نبي الله موسى، إلا اثنين، منهم يوشع بن نون عليه السلام، الذي قاد بني إسرائيل لقتال الجبارين، وذكر ابن كثير أن يوشع كان هو الذي خرج ببني إسرائيل من التيه، وقصد بهم بيت المقدس، فقال أهل التاريخ، أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سورا وأعلاها قصورا، وأكثرها أهلا، فحاصرها ستة أشهر، ثم إنهم أحاطوا بها يوما وضربوا بالقرون (يعني الأبواق) وكبروا تكبيرة رجل واحد، فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم، وقتلوا اثني عشر ألفا من الرجال والنساء، وحاربوا ملوكا كثيرة ويقال إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكا من ملوك الشام.

كما سرد المؤرخون ابن كثير، وابن الأثير في كتابه الكامل : المعركة الأخيرة التي بدأت في يوم الجمعة، وأوشك اليهود على تحقيق الانتصار، لكن الشمس قاربت على المغيب، وكان اليهود لا يعملون ولا يحاربون يوم السبت، فخشى يوشع بن نون أن يذهب النصر، فنظر يوشع إلى الشمس وقال: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها علي. فتوقفت الشمس مكانها، وظلت واقفة إلى أن فتح بيت المقدس ودخله، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس.

وذكر البخاري ومسلم، في صحيحيهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها، ولا آخر قد بنى بنيانا ولما يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها، قال: فغزا فدنا من القرية حين صلي العصر أو قريبا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علي شيئا فحبست عليه حتى فتح الله عليه، فجمعوا ما غنموا، فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه، فقال فيكم غلول فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده، فقال فيكم الغلول فليبايعني قبيلتك، فبايعته قبيلته، فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول أنتم غللتم. قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعوه بالمال وهو بالصعيد، فأقبلت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا.

وذكر ابن كثير أنه لما دخل يوشع بهم باب المدينة أمرهم أن يدخلوها سجدا أي ركعا متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما من به عليهم من الفتح العظيم، الذي كان الله وعدهم إياه، وأن يقولوا حال دخولهم (حطة) أي حط عنا خطايانا التي سلفت، وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولا وفعلا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبة في شعرة، وفي رواية: حنطة في شعرة، وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزأوا به، كما قال تعالى حاكيا عنهم في سورة الأعراف وهي مكية: وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين، فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون.

ويقول ابن كثير: ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه، وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب التوراة حتى قبضه الله إليه، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكانت مدة حياته بعد موسى سبعا وعشرين سنة ، ويقول توسفتا عندما غزا يوشع بن نون(خليفة النبي موسى عليه السلام على بني إسرائيل) أرض كنعان أخبر سكان البلاد (الكنعانيين) أن لديهم ثلاثة سبل مفتوحة أمامهم وهي أن بإستطاعتهم أن يغادروا البلاد ، أو أن يلتمسوا السلام ،أو يعلنوا الحرب ضده، لكن الكنعانيين أعلنوا الحرب ضده، و لكن كان الجرجاشيون من بين غيرهم الذين فضلوا الإنسحاب إلى أفريقيا و يذهب توسفتا قائلا أن العموريون،الكادمونيون،الكنيتيون و الكنيتيزيون بعض من الذين قاموا بتأسيس قرطاجة ، وذهبوا إلى أفريقيا . إن تلك الأحداث تؤرخ من الفترة عندما كان التواصل بين أفريقيا و فينيقيا مستمرا ،و إن الأسماء جرجاش و كيناز عادة ما تقابلنا في النقوش القرطاجية و يقال أن سبع قبائل كنعانية انسحبت إلى أرض إفريقيا طوعا.

و قد تم العثور على نقش مكتوب باللغة الفينيقية موجود قرب مدينة تيجسيس(عين البرج) في نوميديا بالقرب من قسنطينة الجزائرية. وقد اكتشف ذلك النقش أخيرا حيث يقول :إننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يشوع بن نون، بعد أن قتل منا في عشية واحدة عشرة آلاف إنسان. وذلك يثبت صدق ما قاله المؤرخ البيزنطي بوروكوبيس .

يذكر ابن خلدون أن أهالي تلمسان يعتقدون أن يوشع بن نون كان مرافقا للنبي موسى عندما التقى بالخضر الذي أعاد بناء جدار المدينة المنقض ، كما أن منطقة الغزوات بنفس

المدينة في الجزائر تحتضن هي الأخرى ضريح يوشع بن نون الذي تعتبره العديد من الروايات نبيا من أنبياء بني إسرائيل الذين طردوا الكنعانيين من أرضهم و أزاحوهم نحو أرض شمال أفريقيا.

-دخول البونيين أرض المغرب بين الرواية الغربية و الإسلامية :

لقد تأثر الموروث الشعبي حول دخول البونيين أرض المغرب القديم بين الرواية الغربية و الإسلامية ، ففي الرواية الغربية القديمة ارتبط الدخول بشخصية إليشا التي عرفت بتسمية عليسة و لها عدة أسماء بحسب الحضارة التي تكلمت عنها، في الانيادة سميت (ديدو) وترجمت إلى العربية بتسمية (ديدون). وديدو هو اسم ذو أصول فينيقية تعني (الرحالة). كما سميت بأليسا التي يعتقد أنها كلمة فينيقية مشتقة من كلمة (إيليشات) و تعني المرأة التابعة لله، أما في الروايات الإسلامية و حتى تلك التي تركها التراث الجداري فهم يصورون الدخول على أنه كان بقيادة رجل يدعى ديدو بن أليثا و ليس امرأة كما وردت في بعض الروايات خصوصا الغربية منها.

عليسة هي ابنة ملك صور وأخت بيغماليون. وكانت زوجة خالها الذي هو الكاهن الصوري الاعظم المسمى عاشر باص أو ما عرف بزيكار بعل. وكانت مع أخيها الأصغر خليفة بيغماليون في الحكم. بعد وفاة والدها الملك، طمع أخوها بيغماليون بثروة عاشرباص الطائلة ورغب بالحكم مكان أخته. فدبر قتل الكاهن وحاول قتل اخته. فهناك قالت عليسة لأتباعها أنه كان محتوما عليهم مغادرة هذه الأرض التي لم يكتبها الإله لهم و التي أصبح بنو كنعان ملعونين بدخولها فتشتتوا و تفرقوا، و قد كانت تعتقد أن مملكة بعل تقع ببلاد مغرب الشمس، فقامت و غادرت مدينة صور (لبنان حاليا)

وأبحرت مع أوفيائها بعد أن اخذت كنوزها معها باتجاه المستوطنات الفينيقية في شمال إفريقيا طلبا للامان، و خلال استراحتها بقبرص اصطحبت معها من الجزيرة كاهن عشتار الكبير ومجموعة من فتيات قبرص، كان عددهم ثمانين عذراء لتضمن النسل والتكاثر بالمدينة الجديدة التي ستأسسها والتي خططت لها، حيث قامت بتزويجهم للشباب الذين كانوا يرافقونها.

ركبت البحر الابيض المتوسط في اتجاه إفريقيا الموطن الذي سكنه أبناء فوط (البربر) و أرست بالمكان الذي ستؤسس به قرطاج، و ذهبت لتقابل وفودا من الفينيقيين الذين وفدوا هناك قبلها منذ قرون بمنطقة تسمى أوتيكا (المدينة العتيقة) وهي مستوطنة فينيقية قديمة في افريقيا، فالتقت بهم و قدمت لهم الهدايا لتكسب ودهم.

في نفس الفترة الزمنية كانت مملكة صور تتعرض لهجومات متكررة من الاشوريين محاولين احتلال المدينة التي كانت منيعة وحصينة، و بسبب الوضع الخطير ببلادهم هاجر الصوريون من بلادهم بأموالهم خوفا من استيلاء اعدائهم الأشوريين على اموالهم وثرواتهم مما جعلهم ينضمون الى أسطول عليسة، و قد خرجوا خلسة من مدينة صور إلى جزيرة قبرص اولا، ثم من قبرص الى مصر ومنها سواحل افريقية (تونس حاليا) مرافقين لملكتهم عليسة لأنهم تيقنوا حقا أنها كانت على صواب و أن لعنة بني كنعان في الأرض التي لا تحل لهم قد بدأت بالظهور.

ومن الهاربين من مدينة صور و المرافقين لعليسة تأسست قرطاج، فبدأ أتباعها بالحفر لوضع أسس المدينة الجديدة قرت حدشت (أي القرية الحديثة) في اللغة الفينيقية، وكان ذلك عام 814 ق.م حيث باع الملك الليبي النوميدي يارباس مساحة أرض لعليسة يمكن

إحاطتها بجلد ثور وبسعر مرتفع جدا فقامت عليسة بتقطيع الجلد إلى سيول دقيقة جدا واستطاعت ان تتحصل على ارض بمساحة واسعة مما مكنها من بناء قصر سمته بيرسا أي جلد الثور وفيما بعد شيد حلفائها قرطاجة.

الملاحظ من هذه الرواية أنها تأثرت كثيرا بالرواية اليهودية التوراتية خصوصا تلك التي دونها يوسيفوس فلافيوس في القرن الأول الميلادي و التي تبرر هجوم بني إسرائيل على أرض كنعان و محاولتهم تبيان أحقيتهم لتلك الأرض و إقصاء الكنعانيين منها، وصل تأثير هذه الروايات حتى العصر الإسلامي الوسيط حين تحدث يهوذا بن قريش التاهرتي عن أصول أجدار بني قطوبيم الذين كانوا يعيشون في نفس المدينة التي عاش بها أي تاهرت، و تحدث عنهم بأنهم قبيلة من الأفارق تعود للمطرودين على يد يوشع بن نون من أرض كنعان و يقول في روايته بأن دخولهم إلى أرض المغرب كان على يد ملكهم ديدون بن أليثا و من رافقه من القادة الذين قادوا جموع الكنعانيين حين فروا إلى أفريقيا و كان يدعى عبدون بن أبي بعل، و يذكر أنه قد التقى بالنبي يوشع بن نون أسبوعا قبل غزوه لأرض كنعان، و قد أخبره النبي يوشع بن نون أن الله قد أرسله ليطهر بني كنعان من لعنتهم التي حلت عليهم بسبب جدهم كنعان بن حام الذي سكن أرضا لا تحل له، و أنهم سيتطهرون من تلك اللعنة بخروجهم منها و إقامتهم في الأرض التي كتبت لهم، و بأن لعنة الرب عليهم هي سبب تفرقهم و أنهم لن يتوحدوا و لن يقوم لهم ملك في الأرض إلا في الأرض المكتوبة لهم والتي نزح إليها جيرانهم الشرقيون من أبناء فوت (الليبيون البربر) عندما وجدوها فارغة، فعندها قام عبدون بحمل جسد جدهم كنعان بن حام و وضعه في تابوت و أخذه في السفينة ثم شق الطريق نحو أرض إفريقية و دفن جده

في أعالي جبل البعل بالأرض التي فيها مقام النبي يوشع بن نون و هي أرض تلمسان، و جبل بعل موجود في تلمسان، و هذه الرواية رغم ورود بعض الحقائق فيها حول بعض الشخصيات إلا أن تفاصيلها تأثرت كثيرا بالروايات اليهودية.

II-الأجدار في العصر القديم

حسب التراث الجداري، فإن التواجد الكنعاني بأرض المغرب ينقسم إلى قسمين، قسم أول جاء مع تجار البحر الكنعانيين الأوائل و من بينهم عافر بن كنعان و يسمونه عصر الدخول الأول و يعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلادي، أما القسم الثاني فهم الذين هربوا مع قائدهم ديدون بن أليثا بعد هجوم يشوع بن نون عليهم و يسمى عصرهم بعصر الدخول الثاني و يوافق القرن الثامن قبل الميلاد ، و قد هرب فيه معظم الكنعانيين من بلادهم و كان من بينهم الجرجيسيون، و من الجرجيسيين كان عبدون و هو الذي حمل جثمان كنعان و نقله للبلاد الجديدة، أين دفنه بأعالي جبل البعل، و قد ولد لأحد الجرجيسيين ولد في السفينة دعاه (فالت) و الذي يعني اسمه بالبونية اللاجئ و الهارب، و قد يأتي في معنى الإفلات بالعربية، و قد كان اسمه باللسان المحلي هو فالط، و حسب ابن حمو الغرناطي فقد كانت رواية الدخول الثاني في تلمسان تذكر بأن الكنعانيين حين دخلوها وجدوا أطلال مدينة قديمة مخربة فأرادوا أن يسكنوها و يعيدوا بناءها حتى استوقفهم أحد البربر و حكى لهم عن أحد تجار البحر الكنعانيين الأوائل و الذي كان يدعى عافر بن كنعان الذي جاء إلى المنطقة و أراد أن يبني مدينته بها فوافق البربر أن يعطوه قطعة أرض فيها على أن يدفع لهم جزية إقامته عندهم كل عام فوافق بشرط أن يبني بينه و بينهم جدارا صغيرا يفصله عنهم فقبلوا ، و لكنه تأخر في أحد الأعوام عن سداد جزيته فغاروا على مدينته و تعدوا عليه و على قومه فقتلوهم و رموهم في البحر و

سكنوا المدينة و لكن كونهم كانوا أهل بداوة لا أهل تمدن فإن الخراب طال المدينة حتى كاد جدارها أن ينقض فأقامه أحد الصالحين فيها، فعندما سمع الكنعانيون رواية البربري وافقوا على أن يدفعوا جزية كاملة مقابل إقامتهم عندهم، و قد تزوج فالت من ابنة أحد ملوك البربر هناك فأنجب منها عدة أبناء منهم تام و نحنوح الذي كان يمتهن السحر و الشعوذة و كان يميل لممارسات أخواله البربر الوثنية فهاجر نحو الصحراء و أسس مملكته بها، بينما كان تام من صلحاء قومه و من أبنائه قطوبيم جد الأجدار الذي يعتبر أول من تمرد على البربر و طالب بأحقيته بالأرض، فقد روي أن قطوبيم تزوج من ابنة عمه الكنعانية و أنجب منها عدة أبناء ممن هم أشداء و ضخام البنية، فأمرهم أن يبنوا جدارا فوق جدار المدينة السابق على أن يكون جدارا عظيما لم يبنه أحد من قبلهم و لن يبني مثله أحد من بعدهم ليكون حصنا منيعا لهم ففعلوا مثلما طلب، فكان كل ما مر على ساحل بلادهم تاجر بحر من بلاد ما سأل من فيها من البربر عن الذين شيدوا ذلك الصرح العظيم فكانوا يقولون :أجدار بني قطوبيم. و منها تعود أصول تسميتهم، و خرج قطوبيم على البربر فصاح عليهم أن الكنعانيين أبناء هذه الأرض كما هم أبناء لها و أن أحقيتهم فيها تعادل أحقية البربر فيها و بأنه لا جزية للبربر عليهم من عامهم ذلك، فأراد البربر الدخول في حرب معهم و حاولوا بكل الطرق إلا أنهم فشلوا لأن الحصن كان شاهقا و منيعا، حتى جاء أحد ملوك البربر و توسل قطوبيم ليسلمهم المدينة على أن يعطوه و قومه جنة لم يسكنها أي من البربر فتوجس قطوبيم من أن يكون في الأمر حيلة ما و لكنه قبل بعد ما رآه في ملك البربر من الصدق و الثقة فذهبوا إلى أرض تدعى أوزكي و تعني في اللغة البربرية (الملجأ) و تأتي أحيانا في معنى المنفى أو المهجر و هي التي سماها الرومان LVCV FELIX أي لوقة السعيدة بمعنى (المدينة المنيرة السعيدة)، و

قد كانت جنة في غاية البهاء و الجمال، فبنى قطوبيم بيتا للعبادة في جبل بها و يدعى جبل أجدال و هو الجبل الذي أصبح يعرف بجبل منعاء.

و في تأصيل كلمة أجدال يختلف المؤرخون، فمنهم من يعيدها إلى الأصل البربري فيقول أنها من كلمة أجدال AGDAL و تعني المانعة و هي نفسها التسمية الحالية للجبل بالعربية، أما بعض المؤرخين أمثال إريك بنجامان فيعيدونها إلى الأصل البونيقي فيقولون أن أصلها جدل (GDL) و تعني بالبونيقية ضخم أو عملاق، و منه مجدل (MGDL) أي الجسر العملاق و الحصن المنيع، و يقولون أن لفظة أجدار تحورت من أجدال، رأي آخر يصب في رأي القائلين بأصل التسمية البونيقي و هو ما قاله جوليان روميرو بأن الكلمة تعود لزمن ظهور ثورة القطوبيم أو بما يعرف بثورة الدوارين الدوناتية، فيقول أن الكلمة في أصلها تعود إلى جدد (GDD) و معناها القطع أو قطع الطريق و هو معنى التسمية التي أطلقها الرومان على الدوارين Circumcellions.

و في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، شن القرطاجيون ، تحت قيادة ملكوس حربا ضد الليبيين ، وعلى ما يبدو ، نتيجة للنصر ، حصلوا على إعفاء من دفع إيجار أرض المدينة ، والتي كان عليهم في السابق دفعها بانتظام إلى أحد السكان المحليين القبائل، و يعتبره الأجدار رمزا تاريخيا مقدسا و قد وفى بوعده لبعض الكهنة الجداريين الذين أرادوا العودة للإقامة بصور و خدمة الإله ملقرت، رغم أنه لم يكن هو شخصيا من قام بالوعد بل ابنه قرطلون .

وأورد أحداثه المؤرخ اللاتيني يوستينوس ومضمونه كالتالي: في القرن السادس قبل الميلاد، رفع ملكوس صولجان قرطاج في صقلية ثم كلف بغزو سردانيا لكنه فشل فاستاء القرطاجيون من فشله وحكموا عليه وعلى أشلاء جيشه المهزوم بالإبعاد. اغتاظ ملكوس من هذا الحكم الجائر وأرسل وفدا إلى قرطاج يطلب السماح له ولجيشه بالرجوع إلى وطنهم ولكن أعرضت عنه قرطاج ورفضت رجاءه فأعلن أنه لن يتردد في اللجوء الى العنف وافتكاك ما لم يستطع الحصول عليه بالتوسل،ولما بقيت مساعيه دون جدوى، غادر سردانيا على رأس جيشه وأرست سفنه قبالة المدينة حيث أقسم الجميع باسم الآلهة وباسم العباد أنهم لم يأتوا للاستيلاء على الحريات ولكن للعودة إلى وطنهم وإقناع مواطنيهم أن الهزيمة أرادها الحظ غير عابئ بما أبدوه من شجاعة وإقدام ثم انقطع الاتصال وضرب الحصار على المدينة فتملك اليأس الجميع.

وفي هذه الأثناء، كان قرتلون ابن القائد ملكوس في طريقه إلى صور ليسلم إلى خزينة معبد ملقرت عشر الغنائم التي جلبها أبوه إثر انتصاره في صقلية. و عندما مر قرتلون بالقرب من المعسكر، طلبه أبوه فلم يستجب له متمسكا بما يمليه عليه الواجب الديني دون اعتبار واجب الأبوة فاغتاظ ملكوس من موقف ابنه لكنه أبى المس من عظمة الآلهة في شخص الكاهن وبعد أيام قلائل عاد قرتلون أدراجه ومعه جواز مرور من مجلس الشعب وشاهده الجميع وهو يرفل في حلل الأرجوان ويحمل شارات الكهانة فأخذه أبوه جانبا وقال له: هل تجاسرت، يا مجرم وآثرت لمعان الذهب والأرجوان لتبهر مواطنيك الأشقياء بلمعان الذهب و بريق الأرجوان وتدخل كالمنتصر تتحلى بشارات الراحة والسعادة إلى معسكر ملؤه الحزن والدموع؟ ألم يكن في إمكانك التبرج أمام أناس

آخرين؟ فهل لابد من اختيار هذا الفضاء الشاهد على تعاسة أبيك وألم منفاه؟ لقد دعوتك لتمثل أمامي لكنك رفضت رفضا مهينا لا أقول ما طلبه منك أبوك ولكن رئيس مواطنيك! فهذه البدلة الأرجوانية وهذه التيجان التي تتحلى بها ألا ترى أن كلها عناوين انتصاراتي؟ وما دمت لا ترى في أبيك إلا الشخص المنفي، فأنا بدوري، أريد ألا أكون إلا قائدا عسكريا وأعمل على أن تكون أنت مثالا لحماية الآباء من نكد الأبناء وإهانتهم... وفي الحين أمر أن يشدوه وهو لابس بدلته الطقوسية إلى صليب طويل جدا حتى يشاهده كل من في المدينة.

وبعد أيام قليلة تمكن ملكوس من فتح المدينة واحتل رحبتها وجمع الشعب واشتكى له من ظلم نفي أجبره على حمل السلاح وصرح أنه سعيد بانتصاره وسيقتصر على معاقبة الذين كانوا سببا في هذه الكوارث ويعفو على الآخرين حتى ولو ساهموا في الحكم عليه بالإبعاد ظلما. ثم أمر بإعدام عشرة من أعضاء مجلس الشيوخ وأعاد المدينة إلى أهلها بل كان يطمح إلى تغيير مركزية قرطاج إلى مدينة يول (شرشال حاليا) التي كانت قد أسست حديثا في عصره، ولكن سرعان ما اتهم بالسعي وراء الملوكية وتم عقابه من أجل جريمتين اثنتين: إحداهما في حق ابنه والثانية في حق الوطن.

- **النبي يوبع بن ديدو و تعاليمه في الجداريين و البربر**:

في إحدى المخطوطات المهمة لإحدى الإمارات الإباضية في بلاد المغرب الأوسط، كانت هنالك مخطوطة لإمارة بني مسرة الزناتية تتحدث عن عقاب من الله للبربر زمن الرومان، حين بعث الله فيهم نبيا يدعى يوبع بن ديدو (JUBAS) و الذي كان حسب المخطوطة

يدعو قومه تارة بالبربرية و تارة بلسان يضارع العربية و العبرانية و هو حسب الرواة لسان جنس العماليق الذين عاشوا مع البربر في ذلك الزمان أي الأفارق الكنعانيين، و هي الرواية التي تطابق ما رواه ابن حمو الغرناطي عن ظهور نبي في الأجدار، و هو ما نقله القاضي الماحي بن سليمان اليعقوبي في كتابه حيث يقول: ويذكر ابن حمو الغرناطي والثقاة من رواة إمارة بني مسرة بأوزكي أنه قد بعث فيمن سبق الاجدار من آبائهم الاولين نبي يدعى يوبع وقد بعث لقومه من الاجدار والبربر فأراد تعليمهم الشرائع والصلوات لأنهم كانوا على الوثنية يعبدون عجلا على ضفاف واد يمر بمدينتهم ويذبحون القرابين له فجلب لهم صحفا قال فيها ابن حمو الغرناطي انها كانت تسمى صحف الدبران ويدعوها البربر بكتاب مدلس لأن يوبع كان يتلقى وحي الصحف بجبل أجدال ثم يهبط على تلة مدلس فيكتب ما أوحي إليه وكان بصحف الدبران شعائر التوحيد الحنيف ولم يؤمن بدعوته سوى قومه من الأجدار وبعض من نساء البربر أما رجالهم فقد ظنوا أنه يريد بهم سوءا ويمنعهم عن ملة آبائهم الاولى فما ارتأوا إلا أن يوهموه بإيمانهم به ليستدرجوه صوب ناحية بعيدا عن أهله فذبحوه وقطعوه وطبخوا لحمه وأكلوه ثم رموا عظامه وما فضل من جسده في واد العجل الذي يعبدونه قربانا له فما كان من بعض نسائهم المؤمنات إلا أن تتبعوا مجرى الواد فتلقفوا عظامه وأحضروها لأهله ليدفنوه.

و في الجمع بين الرواية الإباضية لبني مسرة و رواية ابن حمو الغرناطي، نجد أن يوبع ولد في القرن الأول قبل الميلاد في قبيلة بونية كنعانية أي من جنس العمالقة (حيث الرواية الإباضية) و هي نفسها قبيلة بني قطوبيم التي كانت تدعى بالجدريم (الأجدار)، و قد

كان ملقبا بحرشون لأنه ورث مهنة البناء من والده الذي كان مؤمنا موحدا بالله،و لفظ (حرش) يعني البناء في البونيقية،و قد كانوا يعيشون في مدينة أوزكي (Auzgui) إلى جانب قبائل بربرية كانوا وثنيين معروفين بعبادة آلهة العجل جرزيل (GURZIL)، فكان يوبع يدعوهم لعبادة إيلو الرب الواحد الأحد و هو نفسه إيل الذي عبده الكنعانيون الموحدون و هو نفسه حمون (Hammon) الذي عبده البونيقيون قبل أن يشركوا معه الآلهة الأخرى، و إيل هو اسم من أسماء الله في الإسلام، و منه أسماء بعض الأنبياء و الملائكة (جبرائيل،ميكائيل،عزرائيل ،إسرافيل،إسماعيل..)،و قد تزوج يوبع امرأة من البربر آمنت بعقيدته و كانت تنشرها بين نساء البربر، و حسب الرواية فإن الله بعثه في البربر لكي يتخلوا عن الوثنية لكنهم خالفوا تعاليمه و استدرجوه شمالا نحو جبل كرسوط بعيدا عن أهله و قبيلته و من تبعه، و قاموا بذبحه و طبخه و أكل لحمه ثم رموا عظامه في أحد الوديان المقدسة كقربان لآلهة العجل جرزيل الذي كانوا يعبدوه، حتى تتبعه أهله و زوجته و من تبعها من نساء البربر المؤمنات و جمعوا عظامه و دفنوها في موضع لا زال يحمل اسمه إلى يومنا هذا.

و في نفس الرواية يذكر أن الله قد عاقب قومه الظالمين بعد ذلك حيث أوحى الله إلى شقيقه معطون (Matho) بأن يهاجر هو و قبيلته و من تبعهم من بعض البربر المؤمنين و أهاليهم نحو إحدى الأراضي بالشرق للتعبد و الخلوة ، و يذكر أنها كانت أراض بجانب جبل أوراسيوس (Aurasius Mons) و هي جبال الأوراس حاليا بشرق الجزائر، و قد أرسل الله فيمن ظلم من قومه أشد أنواع العذاب من الطاعون و الجذام فأصبحوا كالوحوش يأكل بعضهم بعضا حتى لم يبقى منهم أحد، و قد وردت أحاديث نبوية في

النبي يوبع الذي بعث في البربر ،فقد قال يحيى بن سعيد : وأخبرني عثمان بن عبد الرحمن عن عنبسة ابن عبد الرحمن عن شبيب بن بشر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي وصيف بربري، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن قوم هذا أتاهم نبي قبلي فذبحوه وطبخوه وأكلوا لحمه و شربوا مرقه. و في حديث آخر يقول حدثنا بقية بن الوليد عن بسر بين عبد الله بن يسار قال سمعت بعض المشايخ يقول: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: نساء البربر خير من رجالهم، بعث فيهم نبي فقتلوه فولينه النساء فدفنه.

-كتاب الدبران و ذكره لبلاد النوميد :

و في نفس المخطوطات ذكر أن النبي يوبع جاء بكتاب مكتوب باللسان البونيقي يدعى الدبران (Dabarim) و قد تكون مشتقة من اللفظ دبر (dbr) الذي يعني الكلام بالبونية، و يقدم كتاب الدبران نفسه كخبر وحي كشف ليوبع عندما انتهى من خلوته بجبل أجدال ليلا و نزل ليقعد على أعالي تل مدلس ليدون ما سمعه، لذلك ربط البربر كتاب الدبران بتل مدلس فكانوا يسمونه كتاب إدليس و كانوا يدعون يوبع بني مدلس و لو أن لفظة إدليس هي مشتقة من أدليس (Adlis) و التي تعني الكتاب بالبربرية.

و قد دون الكتاب في القرن الأول قبل الميلاد ثم أضاف عليه بعض الكهنة الجداريين في الأزمنة الموالية، و كان يقسم إلى فصول تدعى فروقيم (Parucim) تحتوي على شرائع و تعاليم و روايات و صلوات و قد ذكر ابن حمو الغرناطي أن الشهداء الأجدار الأربع

و الأربعين كانوا يصلون بهذا الكتاب كون اللغة البونيقية كانت اللغة الدينية التي يصلي بها كل الدوناتيين بونيقيين كانوا أو بربرا .

و قد تطرق كتاب الدبران لبلاد نوميدية القديمة حين تحدث عن الدخول الثاني للكنعانيين و قد ذكر هذا في الفصل الثاني للكتاب حيث ورد: ...و قال الرب حمون للملك ديدون بن أليثا إني رأيت مذلة بني آبائك فاخرج من هاته الأرض الظالم أهلها و اركب البحر إلى جنتي و أرض ملكوتي في هذا العالم فالآن هلم فاسأل عن الأرض الشاسعة التي يسكنها الماجريون الذين يرأسهم ملك يقال له يرباع فسأل أحد حرسه و يدعى عبدون فأجابه أني سمعت من أحد العجم يقول أنها بلاد نوميدية و أهلها بدو من شعوب العالم يدعون أنفسهم بني أجير و هي بلاد كبيرة بها الصحاري و التلال و تمتد حتى لواد يقال له ملوشة ... و يعتبر هذا الفصل من بين أهم فصول هذا الكتاب الذي يوثق بعض النقاط التاريخية كالعلاقة بين ديدون بن أليثا و يرباع التي هي نفسها الرواية التي ذكرت دخول أليسا أو عليسة (ديدون) إلى أرض شمال افريقيا التي كان يحكمها أنذاك الملك النوميدي يرباس و الذي تعد تسميته صيغة لاتينية لاسمه المحلي يربا (IARBA) و هو يرباع عند البونيين كما تذكر حدود مملكته التي امتدت من أرض قرطاج القديمة حتى واد ملوية (Mulucha) ، فهذه المملكة كانت بأكملها تدعى نوميدية بينما كانت تدعى عند المحليين بأرض بني أجير و عند البونيين بأرض الماجريين.

و عند البحث في تأصيلة هذه اللفظة نجد أنها تعود لكلمة ماجار (magar) البونيقية و التي تعني البدوي المرتحل من الجذر اللغوي جر (gr)، و في النقوش و الكتابات النوميدية القديمة باللغتين الليبية و البونيقية فقد كانت نوميديا فعلا ترد بلفظة mgry و

أحيانا ngry و تنطق Mageria و تصحف اللفظ لاحقا ليصبح Mapalia و الذي يعني الخيمة النومادية، ثم ترجم في العهد الروماني ليصبح نوميديا Numidia أي بلاد البدو.

لكننا نعثر أكثر من ذلك عند اللاتينيين على لفظ لا يستعملونه إلا للدلالة على مساكن الأفارقة القدامى. وهذا اللفظ يرد دائما بالجمع، وعلى صيغتين هما مجاليا Magalia التي أطلقت على مساكن الأحياء الفقيرة بنوميديا، وله صيغة كتابة أخرى هي مباليا Mapalia، ومن الكتاب القدامى من يبدو أنه يعتقد بأن له أصلا أهليا، ويرى سرفيوس Servius بأنه لفظ بوني وقد أطلق اللاتينيون كذلك لفظ مباليا على مساكن المستقرين الأفارقة، لأن هذه المساكن التي يأوي إليها الفقراء لابد أنها مثل المباليات المتنقلة، كانت مصنوعة من المواد النباتية على الخصوص، و يتحدث الرومان عن البيوت المستقرة في الأرض فيستعملون عبارة تيجوريوم Tigurium وهناك ألفاظ أخرى ليست مرتبطة بإفريقيا، فهناك لفظ إغريقي وهو باللاتينية Tiguria .

وذكر قبريانوس (جد الفقيه المالكي القبرياني ربما) شارعا في قرطاج يدعى Via Mappalensis، واستخدم فرجيليوس mapalia لأكواخ الرعاة الليبيين في أعمال الأرضين ، والأرجح أنه استمدها من كتاب ماغون الشهير في الفلاحة كما يوحي استخدامه لأكواخ الرعاة الرومان في أغاني الرعاة tuguris التي استخدمها وارون وسالستيوس ووردت في الإنياذة برسم مختلف (magalia) استخدمه أيضا في وصف سكنى النوميديين سالستيوس الذي اعتمد عبر همبسال على مصادر بونيقية ، كما أطلق

لفظ جيورا في الآرامية على الدخيل/ المهاجر أو الزائر، و يقال للغريب أيضا زور في الفينيقية (زار في الآرامية)، فهي بهذا ترتبط بعبارة بني أجير/ أزير و تعني بني النوماد (البدو الرحل) و أرضهم أرض الأجيريين (النوميديين).

و قد ربط أزير أو أجير (AGIR) بالعديد من الروايات البربرية و حتى البونيقية لاحقا و التي يمكن القول أنها متشابهة إلى حد كبير ففي الرواية البونية للملك أجير، يذكر القاضي الماحي بن سليمان اليعقوبي في كتابه : ... ورد في أخبار الأجدار القديمة لأحد العارفين في كتابه عن اقدم ممالك البشر والتي قامت ببلاد المغرب الاوسط القديم عن ملك يدعى أجير وقيل أزير وذكر ان داءا انتشر في احدى البلدان عند بعض قبائل البدو لم يجد له بنو البشر حينذاك من دواء فهلك منهم من هلك وفر من سلك وكان منهم امراة ظهر حملها وقصت رؤيا رأتها في نومها على زوجها ان حملها سوف يكون خلاصا لشقاء اهل البداوة في الارض وأسقامهم فقال لها اكتمي سرك ولما بلغت السبع أشهر من حملها توفي زوجها ولما ولدته واشتد بها حالها وأدركت قرب أجلها وضعته في تابوت وألقته في البحر فتلقفه احد البحارة من التجار الذين يجوبون الامصار وكفله وأنشأه على ظهر سفينته وكان له نور على وجهه وأحبه التجار من كل بقاع الارض التي حطت بها السفينة وكبر شابا ورعا فطنا ممتهنا للسفر والتجارة فصيح اللسان بكل ألسنة البلدان حتى تمكن وأصبح مالكا للسفينة وقد سمع به أحد العارفين فبعث فيه الشيخ العارف فلما دخل خلوته حدثه عن احدى الاراضي المنيعة التي لم يقربها بشر واخبره ان نبوءة البدو تقول انه من نال شرف ملكها فانه سوف يملك اقطار الارض فأبى أجير إلا ان تطأها قدماه فنهاه العارف عن ذلك لعلمه باستحالة وقوع ذلك وقال له حذرتك فأبيت

فلا حيلة لي فيك اليوم إلا أن اجيرا كان صنديدا مقداما لا يهاب الموت فراح صوبها وحين مر عليها بسفينته رغبت بها نفسه وقد أبى مرافقوه النزول معه فتوعدهم وحين رست سفينتهم بسواحلها كان أجير اول النازلين فتآوى إليه السباع والوحوش العادية فلما نظر خلفه فإذا به يجد أن السفينة قد عادت من حيث أتت وأن من جاؤوا معه قد تخلوا عنه فقال فليجعل الله ظلمتي شمس ضحى وان لا اجوع في هذه الدار انا واحبتي من اهلي وذريتي وان لا اعرى ولا أضمأ فإن الانسان مثاب بنيته ومجازى بحسن طويته ولابس رداء سريرته ثم مضى وأكمل مسيره ودخل الارض التي رغبت فيها نفسه فوجد فيها قوما غير قوم البشر وظنهم وحوشا إلا أنهم كانوا من قوم الحن والبن فطردوه منها فراح جنوبا ونزل بلاد السودان فوجد بها شيخا فحكى له عما راه فقص عليه الشيخ قصصها وقال هي ارض يسكنها اقوام من الحن والبن وهم اول من سكن الارض وأخبره انه حين خلق الله البشر وتفرقوا في البقاع كانوا يعمدون لإحراق الاشجار وهدم الديار التي تسكنها هذه الاقوام من الحن والبن ليطردوهم منها حيث ثقفوهم بكل موطئ يقعون عليه حتى تجمعوا في هذه الارض ووصف له حدودها بما هو اليوم من بلاد ما بين بحيرة الجريد الى واد ملوية ومن البحر شمالا حتى بلاد السودان وقال له لا زالت تلك آخر أراضيهم ولم يتجرأ عليهم أحد ووصاه إن كان يريد ان يكون له ملك على تلك الارض فلا يكون له جند فاتحون إلا من ذريته ولن تكون غايته قائمة إلا ان يكون له نسل ورهط من شعوب وبدو الارض من مشارقها إلى مغاربها قال ففي الشرق الحكمة وفي الغرب الفطنة وفي الشمال البسالة والإقدام وفي الجنوب صبر على الشدائد وزوجه من إحدى بناته وتدعى بلبلة وقيل بابة فأنجب منها سبعا وعشرين نسلا ثم ارتحل فنزل وادا فيه شيخ وكان له بنتان إحداهما تدعى روبة كان قد أنجبها من امرأة من

الاعراب واخرى تدعى لوبة أنجبها من بدو البربر فزوجه ابنتيه وقد مكن الله للملك اجير في الارض حيث جابها خمسين سنة من مشارقها الى مغاربها وكان من عادته انه كلما مر على قرية في الارض يخرج له كبيرها ويهدي له ويزوجه بنتا من بناته ويصحبه حتى يرحل عنها الى بلدة اخرى حتى جاب بقاع الارض كلها وكان له من كل بلدة جارية او اثنتان وكان له مع كل منها سبع بطون او اكثر من ذلك فكثرت ذريته وتمردت في الارض وقالوا من أشد منا قوة فلما عاد إلى الارض المنيعة هو وذريته لم يخرج اليه احد منها من وحوش الحن والبن فحلف ليهدمنها فلما جن الليل رأى مارئا فأصابه ما أصاب أبويه من الداء فشاور الاطباء من بنيه فعجزوا فأتاه شيخ من قبائل الحن والبن كان له عقل وحكمة وفصاحة لسان البشر فقال له يا أيها الملك فأجابه فقال عندي دواء سقمك ان لم تك ترد بقومي عدوانا فأجابه ازير حلفت يمينا ان اهدمها فقال له لا تقدر على ذلك فهي مملكة لجميع الشعوب والاقوام فلما جن الليل أصبح معافا بقدرة الله فأهدى للشيخ وأكرمه ونزل على أقوام الحن والبن فاتحا فاهدوا له وأكرموه وقالوا له يا سيدنا يرحمك الله وينصر امرك قد ظلمنا شعوب الارض وقاتلونا حيث ثقفونا فاجرنا واجعل لنا منزلا حسنا قال هذه البلاد لنا ولكم ومملكة لشعوب الارض أبد الآبدين وقد تناسل من ازواج الملك اجير خلف وذرية تشعبت منهم قبائل عديدة وكانوا من ستة عشر امرأة من شعوب الارض وقد وقع خراب هذه المملكة حين افسدت اقوام الحن والبن في الارض وسفكوا فيها الدماء فنزل عليها وابل من السماء فأبادها عن آخرها ولم يبقى منها إلا قومها من الانس الذين كانوا من قبل عصبة ولسانا واحدا فاقتتلوا فيما بينهم وتفرقوا في مواضعهم واختلفت ألسنتهم فأسسوا القبائل والامارات واصبحوا يرجعون أنسابهم لأمهاتهم فيقولون ان البربر منا هم من ذريه لوبة والعماليق والعرب

من ذريه روبة والحراطين من بابة او بلبلة والفرس من سند والروم من جور والترك من حان وهذا سبب ضياع ملكهم وكان لمملكتهم فيما بعد امارات فمن ملوكها اعساس الذي خرج إليه النبي يوسف بن يعقوب وملك اخر يدعى احياويل بن اعساس وكان لهذه المملكة قائمة اخرى حين ملكها رجل يدعى يرباع فنزلها قوم العماليق الذين ازاحهم يوشع بن نون وقد عادوا لتأسيسها مع قوم البربر والفرس الذين سكنوها ولكنها لم تدم طويلا حتى سقطت بيد الروم...

أما في الأسطورة البربرية، يرى البربر أن أرض أجير كانت في البداية خاوية يقدسها إله القمر و يلعن كل من يقربها ، ففر منها البشر و استقروا في أراض أخرى، و عندما أرادوا الاستقرار وجدوا الوحوش أشباه البشر فطردوهم، فاجتمع كل وحوش الأرض من أشباه البشر و توجهوا لأرض أجير التي كانت خاوية غير عالمين بأمر إله القمر، فنظر إليها إله القمر فوجد فيها الوحوش فقرر معاقبتها بالنيازك، في ذلك الوقت كان هنالك شخص يدعى أجير (AGIR) هو ابن اله القمر و كان يعيش مع أخته تازيري (TAZIRI)، و في الأسطورة ورد أنه كان من عادة أبناء القمر أن يلد الأخ توأما مع أخته ثم يتزوجها و ينجب منها الأبناء، إلا أن أخته تاهت عندما كانت تلعب في صباها و ذهبت مع أحد النيازك التي أراد إله القمر معاقبة أشباه البشر الذين سكنوا أرضه بها و سقطت على كوكب الأرض، فقرر أجير أن يبحث عن أخته و أخبر أبيه أن يتوقف عن إرسال النيازك حتى لا يصيبه و أخته أي مكروه، فأمهله والده أربعين سنة و إلا سوف يرسل العذاب على الجميع، و عندما جاء أجير للأرض بحث عن أخته فصادفه وحوش الأرض و عرفوا أنه ابن الالهة فطردوه منها، فذهب جنوبا إلى قبائل من السود فعرفوا أنه

إبن الاله فزوجوه من احدى بناتهم و أخبره كبيرهم بأن عليه أن يكون له جيشا من أبنائه و يتناسل من كل شعوب الأرض لأن في كل عرق توجد ميزة و بما أنه ابن الآلهة فإنه سوف ينجب أنصاف الآلهة، و الوحوش سوف تخاف من القوى العظيمة التي ستواجهها، ثم مضى فتزوج امرأة لوبية و أخرى من بدو الأعراب فأنجب من اللوبية نبيب و كتمان و نغموس و زمزيس و فراطنس و يزلاسن و غيرهم و أنجب من الأعرابية مشوليم و قرطان و مشيل و مشاشيل و جدريم و رشقون و غيرهم، و أنجب مزاسيس من امراة من بحر ايجة. و مرت تسع و ثلاثون سنة و قد علم أجير من شعوب الأرض بأنهم طردوا الوحوش إلى تلك الأرض التي أراد أن يسكنها ، فعاد و معه مائة و أربعون نسلا من شعوب الأرض المختلفة و هم من البشر أنصاف الآلهة، و دخلوا أرض أجير و وجدوا أن هؤلاء الوحوش أشباه البشر لا يملكون لسانا و لا يعرفون للحوار سبيلا غير أن الرعب كان يتملكهم ، فعلم أجير أنهم لم يكونوا إلا مخلوقات ضعيفة مغلوبا على أمرها، فقام و جرح نفسه و ألقى بعضا من دمه في نهر دعاه أسفار و أمر الوحوش بأن يشربوا منهم ليصبحوا من دمه فيكونون بذلك أبناءا له، ففعلوا ذلك، و أسس مدينة عظيمة هناك، و عندما مرت أربعون سنة أمر إله القمر بإنزال العذاب على أهل تلك الأرض فلم ينجو إلا أجير و أبناؤه من أنصاف الآلهة و مات كل الوحوش و حزن عليهم أجير حزنا شديدا و لكن الأرض التي أقام عليها مدينته تحولت من جنة خضراء إلى صحراء قاحلة فهاجر شمالا و وزع أبناؤه على كل شبر من الأرض و أوصاهم بأن يدفنوه في مدينته الأولى التي أسسها.

و عند مطالعة هذه الرواية البربرية التي ذكرها بالتفصيل التام ابن حرشون نجد أنها رواية تثير الدهشة فعلا لارتباطها بالعديد من الحقائق التاريخية و التي تبين أن البربر فعلا حافظوا على موروثهم التاريخي و لو عبر الروايات، فذكر قبائل مثل : نبيب، كتمان، نغموس، زمزيس، فراطنس.. هو مطابق تماما للقبائل الليبية القديمة التي سكنت نوميديا و ذكرت في المصادر التاريخية مثل قبائل : Nababes, Ucutumani, Nagmus, Zimizes,Feratenses و هو نفسه الحال مع قبائل :مشوليم،مشيل،مشاشيل.. التي تقابلها قبائل: Musalames, Massyles, Massaesyles و التي لفظت بصيغة الشين بدل السين و هي نفسها الصيغة التي وردت في نصب شرشال البونيقي للملك مسيبسا ملك الماسيليين، و قبيلة مزازيس التي ارتبطت ببحر إيجة و هو بحر يقع في اليونان و التي تعيدنا لقبيلة مازيس (Mazices) التي ذكرها هيرودوت بأنها قبيلة جاءت من طروادة و استقرت بأرض ليبيا، ثم نصل إلى ارتباط تسمية أسفار بمدينة تدمرت و أصبحت صحراوية و هذا يمكن أن يرتبط بمنطقة تدعى سفار (Sefar) بصحراء الجزائر التي كانت تحوي فعلا آثارا لمدينة ساحقة القدم كانت مأهولة بالبشر و غير بعيد عنها تتواجد منطقة طاسيلي ناجر (Tassili N'ajjer) و التي تعني تسميتها بالبربرية (هضبة الأجيريين) و الأجيريون (Ajjers) أو الأزجيريون هم تحالف من الطوارق الذين يسكنون المنطقة الصحراوية بين الجزائر و ليبيا و من الواضح أن تسميتهم ترتبط برواية الأجيريين القدامى عند البربريين.

-جادار و ارتباطه بثورة الدوارين (**القطوبيون Cotopites**):

يولي الجداريون اهتماما أكبر بثورة الدوارين و يعتبرونها أهم فترة تاريخية منذ ظهورهم و أنها الفترة الفعلية التي رسمت وجودهم في شمال أفريقيا ، حيث يربطونها في تراثهم الشفوي و المكتوب بشخصية أطلقوا عليها تسمية جادار (GADAR) و الذي يحمل اسم ديدون أو ديدا (DIDA) و يعتقد أنه كان أول من نادى بقيام ثورة الدوارين بل و كان من قادتها أيضا، و يعتبر الأجدار أنفسهم من نسله و أن الشهداء الأربع و الأربعين كانوا من أحفاده، و هو من ذرية ماطون شقيق النبي يوبع و ذكر في الإلياذة الأربعينية باسم جدرون (GADRON) ، و عند البحث عن تأصيل تسمية (ديدا) و ارتباطها مع المخيلة التراثية الشعبية و الشهداء الأربع و الأربعين نجد بعض الفرضيات المحتملة عن علاقتها الوطيدة ببعضها، فمن الأرجح أن تأصيل هاته الكلمة يعود إلى ما ذكره ابن حرشون عن الأجدار بقوله أنهم (أبناء العم) و العم في اللغة البونية يدعى (دود) و لعل تسمية ديدون التي تعود إلى الملك ديدون بن أليثا تحمل نفس المعنى، و الفرضية الثانية التي اقترحها المؤرخ جوليان روميرو هي مربوطة بالشهداء الأربع و الأربعين الأجدار، و التسمية متعلقة بنظام الترقيم البونيقي المرتبط بالأبجدية البونية، فحرف الدال هو الحرف الرابع في الأبجدية البونية و بالتالي تمثل تسمية ديدا (DIDA) الرقم (44) و بالتالي فتسمية بني ديدا حسبه تعني بني الأربع و الأربعين.

و تذكر الرواية أن ديدون الجداري كان يعمل في زراعة الزيتون في جبل أوراسيوس و قد تزوج من امرأة نبطية جاءت مع أخيها في عهد الملك سبتيموس سيفيروس وحروب المرتزقة الذين جاء بهم من النبط و التدمريين إلى شمال إفريقيا، و كانت المرأة النبطية

تدعى مجدولة نسبة لجبل أجدال الذي سكنت فيه هي و زوجها في آخر أيام حياتهما، كما أقامت في بيت الجدل الذي أصبح يدعى –بيت مانوعا– و كان لها معجزة حيث أصابها العطش فطلبت من الله ماءا فانفجرت تحت أقدامها عين أصبحت تحمل اسمها كما هو متداول عند السكان المحليين بالمنطقة بعين المانعة بغرب الجزائر، و قد كانت امرأة وثنية تدين بديانات الأنباط القديمة كما هو الحال مع ديدون الذي كان يدين بالوثنية البونيقية لكنه تبنى الأريوسية في مراحل متقدمة من حياته و كان أول من دعى أبناءه و أهله للتمرد و الخروج على الرومان بجبل أوراسيوس فيما يعرف بثورة الدوارين أو ثورة القطوبيين (الجداريين) لينتقل بعدها إلى واد مينا ناقلا ثورة قومه إلى هناك، و هي المنطقة التي عرفت تأسيس عاصمة مملكة الأجدار فيما بعد.

-ثورة الدوارين كأقدم تأريخ للجداريين (بني قطوبيم):

الاضطهاد الديني، وسرقة الأرض، والثورة، بهذا طبع العهد الروماني بالمغرب، وأمام عملية سرقة أرض الفلاحين المغاربة من الكولون الإقطاعيين الرومان، تكونت حركات ضد اللوتيفوندات، أي ضد مزارع الكولون، وأهم هذه الحركات ثورة الدائريين أو الدوارين Circoncellions كما سماهم المؤرخون الرومان، ومعناها الثوار الدائرون من مزرعة كولونيالية إلى مزرعة أخرى، و هي الثورة التي أطلقتها قبيلة كوتوبيتاي (Cotopitae) ذات الأصول البونيقية و التي عرفت لاحقا بقبيلة الجداريين (Gaderenos) بواد مينا ، وقد برزت هذه الثورة منذ سنة 340 م، مرتبطة بتاريخ بروز الحركة الدينية المغاربية، كانت ثورة الدائريين في حاجة إلى دعم ديني فربطت نفسها بالدوناتيين الذين كونوا معها ثورة اجتماعية ووطنية، ويصف جوليان هذه الثورة فيقول:

إن القمع ولد ثورة حقيقية بروليتارية، وفي موازاة مع الدوناتية، وفي البداية بدون اتصال رسمي معها، تبلورت حركة اجتماعية صرفة، وهي ثورة الدائريين ، وهم الذين يتنقلون بين مخازن الحبوب الرومانية، مدفوعين بالبؤس الكبير للعمال الفلاحين، الذي أسست عليه الحضارة الرومانية. فقد سلمت الإمبراطورية هؤلاء البؤساء لاستغلال الأرستقراطية الرومانية أو المترومنة، التي كانت تبنى على عرق البرنوس. بين الفلاحين والملاكين لم يكن هناك أي ارتباط لا ثقافي ولا لغوي ولا ديني، بل كانت هذه العناصر كلها تتناقض بين الطرفين. وقد استغلت هذه البروليتاريا الريفية وبخاصة في نوميديا الصراع بين الكاثوليك والدوناتيين وانتظمت في عصابات تثير الرعب بين الملاكين، كانوا يتصرفون كمطبقين للعدالة، كانوا يكرهون السادة والأثرياء، فعندما يلتقون بسيد راكبا لعربته ومحاطا بعبيد، ينزلونه، ويصعدون العبيد بالعربة ويأمرون السيد أن يجري راجلا، ويفتخرون بأنهم جاءوا لتطبيق المساواة على الأرض، ويحثون العبيد على التحرر.

وتصف المؤرخة الفرنسية أوديت فانييه Odette Vannier في دراسة نشرتها سنة 1926 عن الدوناتية، تصف الثورة الدائرية والدوناتية فتقول: كان الدائريون ينزلون الكولون من عربته ويركبون العبد الذي كان يجرها، ويربطونه أمام العربة ويأمرونه يجرها، فيحولون السيد إلى عبد والعبد إلى سيد، كانوا يهاجمون مخازن الحبوب فيجمعون حبوبها ويوزعونها على الفلاحين الفقراء، كانوا يتعرضون لناقلي أموال الضرائب فيسطون عليها ويوزعونها على الفقراء.

واستمرت الدوناتية في الصعود وتحولت إلى مذهب شعبي جماهيري مما جعل الإمبراطورية تراجع موقفها من منعه، فما أن نصب الإمبراطور يوليان F.C.Julianus

وهو ابن أخت الإمبراطور قسطنطين، حتى أصدر مرسوما سنة 362 م بإعادة الاعتبار للمذهب الدوناتي، فأعيدت له كنائسه، حاول الرومان تدجينه وجعله مؤيدا لاستعمارهم للمغرب، لكن الدوناتيين المخلصين لطموحات الشعب المغاربي استمروا في النضال ضد الاستعمار وضد المذهب الكاثوليكي الداعم للاستعمار.

كانت التسمية المحلية للدوارين هي قطوبيين Cotopites و هي لفظة ذات أصل بونيقي من الكلمة قطب (ktp) و تعني القطف بالبونيقية، و تأتي في معنى اشتغالهم في زراعة الزيتون و يعتبرهم معظم المؤرخين بأنهم قبيلة بونيقية كانت لا تجيد سوى البونيقية و هي نفسها قبيلة بني قطوبيم التي ذكرناها، فلفظ قطوبيم (kotopim) هو صيغة جمع بونية للكلمة قطوب (kotop)، و قد كانوا فئة من العمال الزراعيين يتتابعون من منطقة إلى منطقة، ومن ضيعة إلى أخرى، شكلوا مجموعات دفاعية وهجومية ضد المحتكرين وضد الربويين المدينين.

وعليه فإن منطلقهم الأساسي في البداية لم يكن دينيا فيما نتصور، بل كان منطلقا اجتماعيا اقتصاديا بين فئتين رومانية أو مترومنة متحكمة في الاقتصاد والمعاش، وفئة كادحة فقيرة منهوكة بالكاد تحصل على قوتها. في وقت عرفت فيه الإمبراطورية أزمات اقتصادية إذ انقطعت التجارة وضعف الإنتاج ،وتراجعت قيم الذهب والفضة في سبك النقود وتضررت طبقة الفلاحين الذين يرتبطون بالأرض التي لا يمتلكونها، وأهلكتهم متطلبات الملاكين و قد انطلقت ثورتهم من منطقة الأوراس ثم سرعان ما انتشرت في كامل المنطقة النوميدية.

كانت ثورتهم نتيجة للسياسة القمعية التي طبقها الأباطرة الرومان ضد الأهالي وبالخصوص منذ أن أتيحت لهم السيطرة على المنطقة، وخاصة خلال القرنين الثالث والرابع للميلاد حيث ازدادت عمليات الاستغلال الاقتصادي، وتجلى ذلك من خلال إقامة العديد من المخازن في المغرب القديم التي تخزن فيها المنتجات الزراعية التي تصل عن طريق التجار الذين يشترونها من الأهالي أو عن طريق الضرائب العينية المفروضة على السكان خاصة القمح والتي يوصلونها بأنفسهم إلى تلك المخازن وكان معظم السكان لا يستهلكون إنتاجهم الذي كان يصدر إلى روما ويكتفي الفلاح وعائلته بالمحاصيل الثانوية.

-أسباب اندلاع ثورة الدوارين:

ساهمت سياسة الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي للاستيطان الروماني في ازدياد حدة البؤس والشقاء في صفوف السكان الأهالي وألحقت تلك التحولات ضررا كبيرا بهم خاصة وأن روما عملت على امتصاص الإنتاج الريفي وتوجيهه لخدمة الجاليات الأجنبية في البلد أو لتصريفه نحو روما، وأصبحت المنطقة مطالبة بتزويد روما بحاجياتها وبعد إقامة خط الليمس الثاني. استغل السكان المناطق المهجورة في المناطق الضيقة ليزداد الضغط الاجتماعي حدة خاصة وأن البدو المرابطين بالجنوب النوميدي الذين طردوا من مناطقهم التي عمها الاستيطان كانوا يعيشون حالة تأهب لاختراق الليمس والعودة إلى بلادهم.

في وقت كان فيه سكان المناطق الوسطى من الحضنة إلى سهول القيروان، يهتمون بتربية الحيوانات التي بقيت المصدر الرئيسي للمعيشة، مما جعلهم في ترحال دائم من أجل

البحث عن المراعي في المناطق التلية المجاورة صيفا حيث تنتشر المراعي إضافة إلى المياه، ولم تكن الزراعة تحظى بأي نصيب فيما عدا الزراعة المقاومة للجفاف كالزيتون واللوز، وتشابهت الوضعية الاقتصادية في هذه المنطقة الممتدة من الحضنة إلى السهوب التونسية، أما المناطق الغنية بالمراعي والتبن فهي مناطق الشمال، والحصائد المزروعة التي كانت تستلزم عددا من اليد العاملة ومن البهائم و البرادع في فترة حصاد الحبوب كما أن بعض القبائل في الجنوب التلي لها ملكيات زراعية مستقلة، وعلى العموم ظل السكان بحاجة إلى مراعي خلال فترات الجفاف والحرارة التي تهدد قطعانهم.

وتحول سكان المناطق الشمالية إلى عمال أجراء في أراضيهم بعد أن استولى عليها الرومان بل وفرضت عليهم الضرائب وساهمت الوضعية الجغرافية بدون شك في تقسيم المغرب القديم، ذلك أن المناطق المستعصية على الرومان شكلت قلعة للمنشقين منذ اضطهادات دقلديانوس كما أن الحقد على النظام الإمبراطوري الاستغلالي قد ساهم في إيجاد كتلة شعبية معادية في المغرب القديم، تركزت أساسا في منطقة نوميديا ووجدت موضعا لها في قدم الأوراس، إذ ظلت تكيل الضربات للوجود الروماني طيلة قرن ونصف تقريبا ولا أدل على ذلك من تحطيم المعابد والحمامات في منطقة تيموقادي من طرف الرعاة الذين خاضوا حربا ضد أعدائهم الكاثوليك وضد السلطة.

وكان سكان المناطق الوسطى والجنوب بنوميديا وقرطاج قد تشكلوا منذ القرن الثالث في شكل مجموعات عمالية زراعية مترابطة لضرورة الاقتصاد الذي يحتاج إلى يد عاملة تقوم بحصاد للحبوب، وجني الزيتون والفواكه في فترة زمنية ضيقة وفى مختلف مناطق

الإقليم مما يتطلب زيادة اليد العاملة الموسمية ، التي صارت تشكل طبقة من الكادحين الفلاحين خلال القرن الرابع تتميز بنوع من الحرية.

وبدت الحالة الاجتماعية تتصف بالبؤس الذي عم ، وصار أكثر انتشارا من منتصف القرن الثالث، وهو البؤس الذي أوصل إلى حالة الاستياء العام لدى مجموع السكان الذين تضرروا من الحالة الاقتصادية المزرية التي يعيشونها، وصارت هذه الطبقة ذات الأصول المتباينة والمتجانسة اجتماعيا، والمتقاربة اقتصاديا تشعر بالغبن الجماعي الناتج عن طغيان فئة الأغنياء المتحكمة بأمور السلطة، وتمكنت من خوض ثورة اختلفت أسماءها إلا أنها اشتهرت باسم ثورة الدوارين Circum cellas ويتهم أعداؤها أعضاءها بأنهم من قطاع الطرق ومن الصعاليك واللصوص الموجودين في كل مكان والذين يستولون على حقوق غيرهم، وهى شتيمة رومانية بلا شك غذتها الدعاية الكاثوليكية.

في وقت كان أغلب السكان يعاني من مصاعب الحياة ومن الإجراءات الاقتصادية والعسكرية التي اتخذتها السلطة الرومانية ضدهم من إجراءات الطرد ومصادرة الأراضي، يضاف إلى ذلك استغلال الطبقة الأرستقراطية الرومانية لجهد العمال الذين كانت تعاملهم كالعبيد، وتستغلهم، لتتسع لطرف الهوة الاجتماعية ما بينهم ولم يعد الأجراء اليوميين يجدون فرصا للعمل بسبب تزايد عددهم ،منذ القرن الثالث للميلاد رغم حركة التوسع الروماني في استغلال الأراضي.

وشكلت ثورة المزارعين هذه امتدادا للثورات السابقة منذ بداية الاحتلال ما بين الأهالي والمحتلين، وبذلك فهي امتداد لحركة المقاومة ضد الوجود الأجنبي والتي كانت تتجدد كلما تمكنت من ذلك وتوفرت لها الظروف والمسببات.

- **مدلول ثورة الدوارين (الريفية)**:

من هم الثوار الدوارون؟ هل هم مجرد عصابات متمردة تطوف حول المزارع ومخازن الحبوب وتمارس عمليات النهب والسلب والحرق كما صور ذلك الكاثوليك ومختلف القوانين الإمبراطورية الصادرة ضدهم؟ أم هم جماعات من الرجال يتنقلون عبر البلاد ويزرعون الخوف والذعر في النفوس، قاعدتهم تيموقادي و منها ينطلقون ليلا للنهب والسرقة في أرجاء البلاد؟ وهي صور لا تخلو من شتيمة ودعاية لإظهارها بمظهر غير لائق لتنفير الناس منهم وتخويفهم من الاقتراب منهم، أم هم مجموعات من المتشردين والصعاليك المتنقلين من مكان إلى آخر؟ أم من قطاع الطرق المتواجدين في كل مكان وفي كل مدينة وضيعة في إفريقيا؟ ويتشكلون من المستائين، من كل الأصول ومن المقاطعات، هم أهالي لا يتكلمون بغير البونية من العبيد الفارين ومن المعمرين المدمرين ومن الكاثوليك المحرومين، من المفلسين وذوي السوابق العدلية، دون الحديث عن السذج المتعصبين.

وهي أيضا صفة تهدف إلى احتقار هؤلاء الثوار وافراغ حركتهم من أبعادها الأساسية في المقاومة في إطار الصراع القائم ما بين الأهالي والنظام الروماني، أم هم مجموعة من

المصارعين (Agonisticii) كما سموا أنفسهم كدلالة على القوة الجسدية والفعالية في القتال.

أم هم جنود المسيح (Miltes Cristi) كما سماهم الدوناتيون؟ أم هم الجداريون (Gadarenus) كما سموا أنفسهم لاحقا؟ ولقد سموا قادتهم بالزعماء القدسيين (Duces Sauctarum) وهاتين التسميتين الأخيرتين كانتا بعد التحالف مع الحركة الدوناتية في سنة 347م، خلال فترة الاضطهادات الثانية، وليطلق عليهم أيضا صفة مقاومو بناة الوحدة (Operarii Unitatis) وهي صفة ظهرت بعد حملة بوليوس و ماكاريوس لعام 347م بعد القرار الإمبراطوري الرامي إلى فرض الوحدة الدينية وما تلاه من مجازر في صفوف الأهالي الرافضين لتدخل السلطة في الأمور الدينية كما عبر عنه دوناتوس: ما الذي يجمع الإمبراطور بالكنيسة ؟ أم هم الطوافون حول أضرحة الشهداء ؟ لما يحمله هذا المدلول من معنى ديني محض بعد الارتباط بالحركة الدوناتية.

ومن خلال هذه المدلولات الاسمية للثورة الريفية نلمس تطور هذه الثورة وارتباطها بالظرف الذي وجدت فيه، كما نلمس أيضا وصفين مختلفين، الأول الذي درج أصحاب الجدل الكاثوليك على إدراجه بهدف تصوير هذه الثورة بأنها لا أخلاقية ولا إنسانية تسعى لأجل ترويع الناس وسلب ممتلكاتهم وبالتالي تنفير الأهالي من الاقتراب منها، كما نلمس إقرارا ضمنيا بقوة انتشارها من خلال الاعتراف بوجود هؤلاء الثوار في كل مكان وفي كل مدينة وضيعة، وشموليتها وامتدادها الزمني.

والمدلول الثاني وهو مدلول محلي أطلقه هؤلاء الثوار على أنفسهم أو أطلق عليهم من قبل الحركة الدوناتية، وهو أيضا مدلول إغرائي هدفه إعطاء بعد روحي للحركة الثورية لاستمالة الأهالي، خاصة بعد سلسلة اضطهادات مبعوثي الإمبراطور، والذين ارتكبوا مجازر رهيبة، كما مر بنا خلال سنة 347م، وعلى العموم فالرومان استخدموا الدعاية لتشويه صورة هذه الثورة في رأينا، على أن هؤلاء الثوار الذين يطوفون في كل البلاد، يرهبون الملاكين ويبعثون برسائل التهديد إلى الدائنين وأن الطرق لم تعد آمنة ،وعصاباتهم تتكون من الأشقياء والمجرمين الذين يعيشون على السلب والاغتيالات وهي ادعاءات لا تخلو من شتائم تجاه هذه الثورة، التي اتخذت هي الأخرى دعاية مضادة على أنها ثورة مقدسة أو ثورة القديسين، لتكتسب في صفوفها تعاطف الأهالي.

كما تشكل استمرارية للثورات السابقة خلال القرن الثالث للميلاد، وكانت ثورة الدوارين حربا شعبية، طبقية ضد الأوضاع السيئة التي كانت كنتيجة للاستبداد السياسي وما خلفه من ضيم اجتماعي وسيطرة للطبقة الثرية المهيمنة على الموارد الاقتصادية والمدعومة بجرمة السلطة الرومانية التي حمت تلك المصالح والقوانين ،في الوقت الذي يعاني فيه الأهالي من تردي للأوضاع المعيشية مما جعلهم كثيري الترحل ما بين الضياع بحثا عن العمل.

-الارتباط الدوناتي بثورة الدوارين:

حاول المجادلون الكاثوليك الذين تناولوا حركة الدوارين. تصويرها على أنها حركة بشعة يقودها مجرمون لا إنسانية لهم ولا شفقة في قتل ضحاياهم والتنكيل بأجسادهم وأنها تشكلت من عصابات الصعاليك التي أحلت الذبح ونشرت الذعر، وهو تحامل

يهدف إلى لفت النظر عن أعمال الطرف الروماني والكاثوليكي في منطقة المغرب القديم القائمة أصلا على الاستغلال بكل أنواعه، محاولين إيجاد المادة التي تصلح لصياغة خطبهم وكيل التهم لخصومهم الدوناتيين الذين يحملونهم المسؤولية في ذلك.

وإن كانت ثورة الدوارين قد وجدت في الحركة الدوناتية السند الديني الذي ظل معاديا للسلطة الزمنية الداعمة للكنيسة الرسمية، فإن الحركة الدوناتية نفسها قد وجدت في ثورة الريفيين السند الشعبي لتحمل عبئ الدفاع عن الطبقات الكادحة المغلوبة في المنطقة وان أغفل المجادلون الكاثوليك تاريخ بداية وتطور الثورة الريفية إلا فيما عدا بعض الإشارات الخفيفة، إلا أنهم يركزون على الارتباط الدوناتي بثورة الدوارين، والتي يحملونها في الغالب إلى سببين أساسين الأول ديني والثاني اقتصادي واجتماعي والدافع الأول يرجعونه إلى الصعوبات الدينية للحركة الدوناتية بوصول مبعوثي الإمبراطور أو بناة الوحدة، والثاني يرجعونه إلى المصاعب الاقتصادية المهددة وحالة البؤس العام في باغاي، ومعاناة سكان الأرياف الذين صاروا مهددين بالمجاعة وهو تعليل لا يخلو من تحامل كذلك ينم عن محاولة لتفسير للحكم بفشل الحركة الدوناتية، وعدم قدرتها على مسايرة الأحداث الناجمة عن حركة الاضطهاد ومن جهة أخرى بمحاولة تقزيم الثورة الريفية على أساس أنها ثورة جياع بدأت تنتظم وتتسع.

والمهم في ذلك أن الحركة الدوناتية بتحالفها مع الدوارين قد بدأت تتجه إلى التحرر بعد الانشقاق الديني، وأصبح بذلك الخلاف الديني صراعا اجتماعيا، قائما على التمايز الاقتصادي والاجتماعي.

وفي سنة 340م قام هؤلاء المتمردون بالمطالبة عن طريق الاحتجاج بالقضاء على البؤس الذي يعيشونه ويذكر أوبطا الميلي أن الأساقفة الدوناتيين وجهوا نداءا عقب أحداث سنة 340م إلى الدوق الأفريقي من أجل كبح جماح هؤلاء وطلبوا من الدوق طورنيوس Taurinus إعادة هؤلاء إلى الطريق السوي، مما جعل الدوق يرسل جنوده إلى الأسواق التي يتواجد بها الدوارون وحدثت مجزرة في قرية أوكتافا Locus Octavensis ومات عدد كبير كما جرح عدد آخر .

وهذا يعني أن الحركة الدوناتية بحسب هذه الرواية لم ترتبط بعد بثورة الدوارين وأنها تأثرت من هذه الحركة الاجتماعية هذا إذا أخذنا بهذه الرواية، فإن الكنيسة الدوناتية قد اختلف رجالها في النظرة إلى هذه الفئة نظرا إلى قتلى تلك المصادمات وأن البعض من الدوناتيين رفض دفن هؤلاء القتلى داخل الكنيسة و منهم كلاروس Clarus كاهن قرية سيبلونيس Locus Subbulensis الذي عارض أسقفه ورفض ذلك على اعتبار أن الدفن محرم في بيت الله.

ونتج عن الخلاف الدوناتي حول ضحايا تلك المصادمات بداية ارتباط وتلاحم ما بين الدوناتية و الثورة الريفية لأن مبشري الدوناتية كانوا أكثر تلاحما وصلة بالريف كما كانوا أكثر إطلاعا على حقيقة الدوارين فتعاطفوا معهم ووقفوا إلى جنبهم في محنتهم بقرية أوكتافا على عكس أساقفتهم الكبار الذين تكون مصالحهم قد تأثرت من طرف الدوارين، وأدت مذبحة أوكتافا إلى ازدياد أتباع الدوارين ومنهم من التجأ إلى الجبل .

ولكن تعاطف المبشرين الدوناتيين خلال أحداث 340م قد تحول إلى ارتباط واحتواء في سنة 347م، بعد أن وجه دوناتوس في باغاي دعوة إلى هؤلاء الدواريين لمقاومة مبعوثي الإمبراطور بوليوس و ماكاريوس واحتاط للمعيشة بأن حول كنيسته إلى مخزن للحبوب Metatores وبدأت الثورة الاقتصادية الاجتماعية تأخذ بعدا دينيا بعد أن أطلق الدوارون على أنفسهم صفة جنود المسيح و على قادتهم صفة الرؤساء و كانت صرختهم في الحرب الثناء على الله :الحمد لله (Deo Laudes)، والتي قال عنها أوغسطين : لقد كانت مخيفة كزئير الأسود.

ووقفوا ضد بناة الوحدة المكلفين بتطبيق القرار الإمبراطوري لتكريس الوحدة الدينية مما جعل أوبطا يصفهم بأعداء الوحدة Ante Unetaten و المدافعين إلى الاستشهاد تحت هذا الفرع الديني، بأعوان الدوناتية و لإعطاء بعد ديني لحركتهم لارتباطها بالحركة الدوناتية استخدموا سلاح العصي الطويلة في حربهم معتمدين على النص الديني :من يضرب بالسيف يهلك بالسيف. وعدوا قتلاهم من الشهداء الجديرين بالتقديس، والذين كانوا يتزايدون كدلالة على البطش الإمبراطوري و على قوة انتشار الثورة الريفية، حيث حملت النقوش التي عثر عليها في العديد من مناطق مقاطعة نوميديا وموريطانيا، أسماء أولئك الشهداء ومنها نقيشة وجدت بالمنطقة الشمالية لجبال الحضنة ببرج ردير Bordj Redir حملت اسم شهيدين من هؤلاء الثوار هما فلوروس و كاستوس كما حمل ختم وجد في فرجيوة ما بين ميلاف وكويكول من سطر نقش عليها العبارة الكاملة :لله الحمد (Leo laudes)، وهذه العبارة وجدت منقوشة أيضا بنواحي ماسكيلا في هنشير بوسعيد ما بين تيفست و ماسكيلا وفي باغاي، وغيرها من المناطق وهذا ما يدل على

الانتشار والشمولية في منطقة نوميديا لهذه الثورة التي احتوتها الحركة الدوناتية التي مثلت المعارضة السياسية والاجتماعية القوية لهذه الحركة المحلية ،التي أعطت عديد الشهداء الذين نقشت أسماءهم في العديد من المناطق، خاصة في نوميديا وموريطانيا السطيفية ومنهم ميجين و دوناتوس و باولس و بطرس.

وتحولت الكنائس والمعابد التي حوت قبور الشهداء إلى محج للأهالي حيث تقام المراسم والولائم،لأنها عبرت عن طموحات الأهالي ورغبتهم في التحرر من الاستغلال المكرس ضدهم، وهذا لا يعني بأن كل الأهالي كانوا متنصرين في تصوري حتى يتبنون فكرة الثورة، فالبواعث لم تكن دينية تماما، بل كانت اجتماعية واقتصادية أيضا.

وعلى العموم فإن الدوناتية أعطت الثوار الريفيين طابع التقديس وأدرجت موتاهم في قائمة الشهداء وأعطت لزعمائهم صفة الطهر، بعد أن كانت أعمالهم تنعت بالوحشية ويوصف رجالهم بالمتمردين و العصاة .

-ثورة الدوارين بين المقاومة ورد الفعل:

خلال القرن الرابع حدث تطور في نوميديا بعد الانفجار الذي أحدثه الدوناتيون باستعمال وسائل المقاومة بما فيها العنف الذي تستر خلف الحماس الديني، ضد الأرستقراطية اللاتينية المستغلة مما أوجد وضعية خطيرة مهددة للوجود الروماني بعد تحالف الدوارين مع الحركة الدوناتية، واستخدام مجموعة من الوسائل لتحقيق أهدافهم في ضرب رموز سياسة الرومنة والكنيسة الرسمية المتحالفة معها طبيعيا على اعتبار أن الأغنياء وأصحاب المصالح والأرستقراطيين قد وجدوا في الكنيسة الرسمية السند

الأساسي، كما وجدت هذه الأخيرة سندها الأساسي في التحالف مع السلطة الزمنية في محاربة الغضب الشعبي المتأثر بالوضع السيئ على مختلف الأصعدة، ولذلك كان الدوارون يجوبون الملكيات الكبرى ويقومون بالاضطرابات ولا يعترفون بالقانون .

وحمل لنا المجادلون الكاثوليك أخبار حوادث القرن الرابع بنزعة لا تخلو من الذاتية والتعصب في الدفاع عن الكنيسة الرسمية و السلطة الإمبراطورية، ويرى أوبطا الميلي أن الدوارين هم مجموعة من الناقمين على الأوضاع و هم من الأهالي الذين لا يتكلمون بغير البونية، وتشكلوا من العبيد الفارين ومن المفلسين، ومن الكاثوليك المحرومين ومن ذوي السوابق العدلية، دون الحديث عن السذج المتعصبين، وهو يحاول أن يعكس بذلك التركيبة البشرية لحركة الدوارين على أنها تتألف من حثالة المجتمع النوميدي، وهو اتهام لا يخلو من دعاية رسمية وتشويه. فالمزارعون موجودون في كل مكان وبأعداد كبيرة وثورتهم اجتماعية ضد البؤس والشقاء، ثورة تقودها الطبقات الأكثر بؤسا وشعورا بالظلم موجهة ضد الأغنياء الاستغلاليين في شكل هيجان اجتماعي، وعمال موسميين أهملتهم الدولة حتى وصلوا إلى حالة يرثى لها، مع تزايد أعدادهم في ظل وضع اقتصادي خطير.

واستخدم الدوارون في البداية العصي - كما بينا ذلك – ثم أصبحوا يستخدمون المقاليع والحجارة ، وحملوا السيوف والفؤوس والقواذف مع نهاية القرن الرابع للميلاد، تدفعهم العاطفة الدينية الشديدة بعد نمو دافع التضحية في نفوسهم في سبيل المبادئ التي حملوها إلى الحد الذي جعلهم يتدافعون نحو القتال أملا في الظفر بالموت لنيل ثواب الآخرة بعدما أعلن دوناتوس بأن الذي يموت في ساحة القتال يحصل على شرف الشهادة.

وطلب من الدوارين الانضمام إلى الحركة الدوناتية لمقاومة مبعوثي الإمبراطور المكلفين بإحصاء الفقراء لتوزيع المؤونة عليهم، والسعي من أجل تكريس الوحدة الدينية في المنطقة والتي رفضها دوناتوس وطلب من (المصارعين) بقيادة أكسيدو وفازير إلى مقاومة بولوس و ماكاريوس وقائد الجيش الروماني الدوق سلفستر Sylvester وحددوا أهداف هجماتهم القائمة على حرق ونهب وسلب الملكيات الكبرى وتحرير العبيد من أيدي الملاك، وإرغام الدائنين على التنازل عن ديونهم وإذلال الملاكين الكبار .

ويدافعون عن المظلومين ويدفعونهم إلى الثورة ضد الملاكين الكبار، الذين يحتكرون الحياة الاقتصادية في المغرب القديم، في حين كان الفقراء من الأهالي يتجاذبون ما بين الحياة أو الموت، ويعانون من حالة احتضار نتيجة الوضع الاجتماعي الصعب، وكانت حالة العداء شديدة ما بين الطبقتين، إلى الدرجة التي كان معها الثوار الريفيون حينما يصادفون سيدا من الملاكين ينزلونه من عربته ويأمرون عبده بالركوب بدلا منه ويجبرونه على الجري أمام عربته .

لقد عمت حالة اللاأمن بالنسبة للمعمرين في الطرقات إلى الدرجة التي أصبح فيها سير المعمر في الطرقات مجازفة، لأن مهاجمة عربات المعمرين تعد هدفا أساسيا لإذلال المعمر وتحرير العبيد المصاحبين له، والذين تمرد عدد كبير منهم على ملاكيهم والطبقات العليا في المجتمع، وهذا مكن الثورة الريفية من حشد المزيد من المتعاطفين والمتضررين من الوضع. ويقوم الثوار بتمزيق عقود شراء العبيد ويحررونهم من أسيادهم باستخدام القوة، ولقي الملاكون أنواع العذاب الذي يكاد أن يصل إلى حد الموت الوشيك مثلما يذكر أوغسطين، كما وجهوا رسائل تهديد إلى الدائنين من أجل التنازل عن ديونهم، ولم

يعد لعقد الاعتراف بدين أي قيمة، لعدم قدرة الدائنين على تحصيل ديونهم، وتحول الدائنون إلى مدينين.

وساهمت هذه الوضعية الجديدة في تنامي ظاهرة التضامن ما بين الأهالي لتحميل الربويين والاستغلاليين كل المآسي والسعي على تحرير الأنفس من الاستكانة للوضع القائم وأصبح الأمل في التحرر ممكن التحقيق بعدما لبست ثورة الريفيين لباس الحركة الدوناتية لتتحول إلى معارضة حقيقية وشاملة. وتمكن الدوناتيون بفضل جماعات الدوارين من البقاء في كنائسهم، و قد تم تحريض جماهير المنطقة على الثورة ضد سياسة الرومنة و الإمبراطورية التي بدأت تهتز، في ظل غياب يكاد يكون شاملا لمظاهر السلطة الرومانية ،وعدم قدرتها على التحكم في الوضع.

ولم يعد بمقدور القضاة فرض القانون وتطبيقه وتوقيف الاغتيالات، و اهتز عمل الإداريين ولم يعودوا قادرين على القيام بمهامهم وأغلق الحكام في المقاطعات أعينهم عما يجري، ولم يعد الأعوان قادرين على تحصيل الضريبة نتيجة للفوضى، وتضرر بلا شك من جراء تلك الحوادث الاقتصاد الروماني نظرا للاضطراب الحاصل في مصادر التصريف الغذائي بالمنطقة وتراجع اليد العاملة الموسمية التي تعد ضرورية للاقتصاد الزراعي ولا يمكن الاستغناء عنها أثناء فترة جني المحاصيل(حبوب، زيتون وخضر).

ومن الطبيعي أن يتراجع الإنتاج، فيما عدا المناطق التي تتوفر على حماية كافية لأن أعمال السلب والنهب لمخازن الحبوب كانت السمة الغالبة في ذلك الوقت وكان الدوارون يأكلون ما يجدونه أمامهم، ويوزعون الحبوب على المحتاجين، خاصة وأن الدوارين كانوا يشكلون ضرورة للاقتصاد الروماني في أفريقيا .

وأمام الضغط سرح الملاك عبيدهم أمام المحاكم لإعطاء الشرعية القانونية لتصرفهم وانضم البعض من الأثرياء إلى الكنيسة الدوناتية في المدن والأرياف خوفا على مصالحهم من أن تتعرض للخطر،خصوصا وأن الثوار يتعرضون لكل من يقاومهم ومرتبطين بالجماهير النوميدية، التي ظلت رافضة وثائرة على حضارة المحتل.

ويرى المؤرخ مونصو أن الدوارين تميزوا بالتشدد ضد رجال الدين الكاثوليك وضد الدوناتيين القدماء الذين انتسبوا إلى الكنيسة الرسمية معتمدا على نص لأوغسطين أورد فيه أن الدوارين كانوا يقيمون الكمائن ضد أعدائهم، و يراقبونهم في الطرقات، ويختارون جنح الليل للهجوم عليهم في منازلهم، محاولا أن يعطي بعدا لا إنسانيا لتلك الثورة التي عمت المنطقة إلى درجة أن أصبحت معظم الكنائس في نوميديا دوناتية، مما دفع بالدولة إلى مساعدة الكاثوليك في بناء كنائس لهم في المدن من الخزينة العامة.

ولم تجد الإمبراطورية بدا في مواجهة الثورة الريفية المدعومة من الحركة الدوناتية إلا باستخدام الوسائل المتاحة والمتمثلة في الدعاية المضادة وارسال جيش للقضاء على الدوارين، والذي قام بمجازر باغاي سنة 347م، وقتل الكثير من الدوارين كما تذكر النصوص و تم نفي زعيم الحركة دوناتوس، وساهم ذلك في تزايد تضامن الأهالي مع الضحايا وسرعان ما تحول هذا التضامن إلى اتحاد مناهض للإمبراطورية والكنيسة الرسمية ودليلنا في ذلك هو قوة الانتشار للثورة الريفية ،التي بينا اتساع مجالها الجغرافي في نوميديا من خلال النصوص و المكتشفات الأثرية، رغم أن الأحداث كانت دموية وأحدثت انكسارا في صفوف الأهالي إلى الحد الذي اعتقد فيه الرومان بأنه تم القضاء النهائي عليهم، إلا أن الأهالي كانوا ينتظرون الفرصة المواتية للانطلاق من جديد ،

والملاحظ أن نصوص المجادلين الكاثوليك لم تتحدث عن الإجراءات الإمبراطورية المتخذة ضد الثوار الزراعيين، على عكس الإجراءات المتخذة ضد الحركة الدوناتية، وقد يرجع ذلك في تصوري إلى الاعتراف بذلك التلاحم الحاصل بينهما.

وأهم إجراء رسمي اتخذ ضد الثورة الريفية تمثل في وثيقة العقوبة، الصادرة بعد مجمع المحاكمة في قرطاج سنة 411م، والتي فرضت غرامات مالية على الدوارين و إلزام العبيد المسرحين تحت الضغط والفارين بالعودة إلى ملاكهم بعد أن انضموا إلى الثورة التي يدينون لها بالولاء لأنها حررتهم من نظام الرق. وكانت عقوبتهم بموجب القانون سلب حريتهم من جديد عملا بالقانون.وعلى العموم فإن هذه الإجراءات لم تستطع القضاء على الثورة الريفية التي ظلت متقدة ، وأحدثت فزعا لرجال الدين الكاثوليك والسلطات الرومانية ونقلت الكنيسة الدوناتية من حالة الانشقاق الديني إلى صف المعارضة والرغبة في التحرر من النظام القائم الذي بدأ يتصدع ولم يعد يرى في الأرستقراطية الرومانية في المنطقة وسيلة للحفاظ على الامتيازات،إلا أن القيادة الدينية لم تكن قادرة على قيادة معارضة سياسية متبصرة ولم تستطع أن تستغل الثورة الريفية لتحقيق النصر النهائي، لينضم الثوار إلى ثورة الأمير فيرموسFirmus بعد سنة 372م.

مع بداية القرن الرابع للميلاد تنصرت السلطة و أباحت لنفسها التدخل في الشؤون الكنسية لتغليب الطرف الذي ترى فيه بأنه يمكن أن يساعدها في الحفاظ على التوازن في المنطقة وتستخدمه كوسيلة للدعاية لسلطتها لتتطور المقاومة بظهور الحركة الدوناتية التي ارتبطت بمحيطها النوميدي، وتحالفت مع الثوار الذين ضاقت بهم السبل جراء تضييق الخناق عليهم من قبل الملاكين الرومان، بواسطة استغلال جهدهم بعدما حرموهم من

أرضهم التي تحولوا فيها إلى عمال موسميين، لا حق لهم ولا يختلفون عن فئة العبيد، و ثورة الدوارين ومن وراءها الحركة الدوناتية كحركة داعمة بالرجال الذين كانوا يتسارعون في طلب الاستشهاد ، وتحولت مقابر الشهداء إلى مزارات للأهالي تدفعهم نحو المقاومة وطلب الشهادة وتمكنت من إلحاق الأذى بالاقتصاد الروماني، وتراجع دفع الثروات من المنطقة نحو روما وتعطل الموظفون عن جباية الضرائب لغياب الأمن، وفر الملاكون باتجاه المدن الأكثر أمنا وتم تحرير العبيد، الذين شكلوا خزانا بشريا إضافيا لتلك الثورة التي هزت هيبة روما فتحركت لأجل التخلص منها ومن المحرضين عليها من الدوناتيين الذين صادرت أملاكهم ونفت زعماءهم كمحاولة للتخلص من الدوناتية واخماد جذوتها ، إلا أن هذه الأخيرة نظمت نفسها من جديد لأنها تمتلك زادا بشريا يكاد يمثل الغالبية من الأهالي ، باعتبارها تعبر عن أهداف وتطلعات الناس الذين يعانون من الفقر والبؤس المعيشي نتيجة للقهر والاستغلال الروماني.

ثورة روبا الدوناتية و وقعة الأربع و الأربعين شهيدا من الدوارين :

مع اكتساح ثورة الدوارين لنتائج كبيرة حققتها في شمال افريقيا مع سرعة انتشارها، قررت السلطة الرومانية الضرب بيد من حديد على هذه الثورة و القضاء عليها نهائيا، لذلك أرسلت أحسن قواد جيشها رفقة قوات عسكرية عاتية سنة 411 م للتنكيل بهم، فقامت بتشتيتهم بالقوة و العنف و قضت على أتباع هذه الحركة الدينية الاجتماعية، و سلمت أملاكها و معابدها للكاثوليك، في نفس الوقت التي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية على وشك التداعي و السقوط حيث استولى الوندال الأريسيون على شمال افريقيا و قد كانوا موالين للدوناتيين فاستغلوا ضد الكاثوليك تلك الوسائل العنيفة التي

استعملوها ضد الدوناتيين، و بالتالي انتقمت الكنيسة الإفريقية لنفسها في النهاية، و ضلت النزعة الدينية الثورية التي أشعلها الدواروں من بني قطوبيم نزعة عارمة متجذرة في أوساط المغاربة القدماء التي نتج عنها ثورات تمكنت من التخلص من التبعية للرومان و تأسيس ممالك محلية خاصة ، و قد نزح الدواروں من قبيلة كوتوبيتاي البونيقية إلى غرب نوميديا إزاء واد مينا بعدما اشتد اضطهاد الرومان لهم و استقروا هناك ممهدين لأكبر ثورة دوناتية بقيادة روبا الجدارية و التي انتهت بموقعة أليمة تعرف بموقعة الأربع و الأربعين جداريا من القطوبيين الدائريين أتباع العقيدة الدوناتية التوحيدية و التي مهدت لاحقا لظهور مملكة الأجدار المحلية.

ولدت الراهبة روبا Robba في مدينة تامقيت وهي مدينة نوميدية أسسها سيفاكس، وتعود لعائلة جدارية بونيقية من نازحي قبيلة القطوبيين (Cotopites) الذين فجروا ثورة الدوارين ، و تعود تسميتها إلى الجذر البونيقي رب (rb) و تعني القائد و السيد، و قد نشأت في بيت من الطبقة الراقية و هي من عائلة دوناتية متسترة بغطاء كاثوليكي فهي أخت القس جرمانوس هونوراتوس Honoratus أسقفAquae Sirenses، و قد ذكر ابن حمو الغرناطي و بعده القاضي الماحي بن سليمان اليعقوبي اسم هذا القس الذي كان يدعى كبدون، و من خلال دراسة تأصيل هذه الكلمة نجد فعلا أن الرومان قديما كانوا يقومون بترجمة حرفية للأسماء المحلية فاسم Honoratus مشتق من اللفظ Honoru و معناه الفخر و الشرف و العظمة باللاتينية و ترجمته بالبونيقية هي اللفظ كبد (kbd) و منه تسمية كبدون (Cabdollo) شقيق روبا من الجداريين.

و قد برزت الراهبة روبا بتعاطفها مع أبناء عمومتها الجداريين مفجري ثورة الدوارين و أنصار الحركة الدوناتية التوحيدية الذين ينفون الألوهية عن عيسى عليه السلام ويوحدون الله وحده، فكانت تخفيهم في الدير الكاثوليكي عن الجنود الرومان، لكنها سرعان ما تبنت المذهب الدوناتي بشكل رسمي وأصبحت تجاهر بعداوتها للكنيسة الكاثوليكية وللرومان، و انضمت لثورة الدوارين من أجدادها فحثت السكان على النهوض ضد الرومان واضطهاد الكنيسة الكاثوليكية للدوناتين فقادت ثورة عارمة ضد المعسكر الروماني ملياريا الذي كان قناة خط الليمس الذي يربط باقي المعسكرات ببعضها.

فقتلت هناك في 20مارس 434م رفقة أربع و أربعين دوناتيا جداريا و أصبح قبرها مزارا لكل طوائف المذهب الدوناتي في شمال افريقيا، فكانت روبا الشعلة التي أيقضت باقي الاساقفة من بعدها ضد روما، و يذكرها القاضي الماحي بن سليمان باسم ربة و قال أن راهبة أخرى تدعى زانة كانت قد استشهدت معها، و قد خلدها التاريخ بأنها شهيدة الدوناتيين الدوارين الأربع و الأربعين ذوي الأصول البونيقية الذين سقطوا على ميدان الشرف بغرب نوميديا، و يذكر أنه قد توفي في تلك الوقعة أربعون رجلا و أربع نساء من القطوبيين الأجدار، و قد دفنهم أبنائهم في مقبرة واحدة و وضعوا مرائسهم (شاشياتهم) كعلامة فوق قبر كل واحد منهم، و قد كانت الشاشية ثقافة أدخلها الفينيقيون إلى شمال إفريقيا حيث كانت ترتبط بكهنة معبد تانيت ثم أصبحت تحمل رمزية عند رجال الدين الدوناتيين و كانت تدعى بالمرأش أي المرأس و هو ما يوضع على الرأس، و هي رمزية لا زالت تتداولها القبائل الجدارية اليوم فهم يقولون أنهم من

أبناء شهداء الأربع و الأربعين شاشية، و لا زال مزار هذه القديسة متواجدا في جبل يدعى جبل لالة روبا في المسيد بغرب الجزائر و هو مزار للنساء و الأطفال إلى يومنا هذا حيث ترد الاسطورة في القبيلة التي تسكن تلك المنطقة و هي قبيلة مهاجة الجدارية التي تزعم أن قوما كانوا بصحبة قديسة فأساؤوا شكر النعمة فمسخهم الله إلى حجارة بينما رفعت القديسة إلى السماء فبقيت صخور جبل روبا بالمسيد شاهدة عليهم.

-**مملكة الجداريين** (Djeddars) :

مع انشغال السلطة الرومانية بالحروب الأهلية الكارثية وفساد أزمة القرن الثالث، تحرشت القبائل البربرية البدوية المحلية بالمستوطنات الرومانية واحتلت بعض المناطق الحدودية من موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية، و قد شهد القرن الخامس انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، كانت الأراضي الداخلية لموريطنية تخضع فعليا لسيطرة البربر منذ القرن الرابع، مع حكم روماني مباشر يقتصر على المدن الساحلية مثل سيبتام في موريطنية الطنجية والقيصرية في موريطانيا القيصرية. حافظ الحكام البربر في الأراضي الداخلية على درجة من الثقافة الرومانية، بما في ذلك المدن والمستوطنات المحلية، كما اعترفوا في كثير من الأحيان اسميا بسلطة الأباطرة الرومان.

بدأت السلطة المركزية في الانهيار في العديد من المقاطعات البعيدة وذلك لحاجة الإمبراطورية للاهتمام بأماكن أخرى، ففي موريطنية كان القادة البربريون المحليون والقبائل قد اندمجوا في النظام الإمبراطوري منذ فترة طويلة كحلفاء وقادة فدراليين وقادة حدود، لكن مع ضعف السيطرة الرومانية أسسوا ممالكهم وحكوماتهم في المنطقة. كان زعماء البربر يتمتعون ببعض الخبرة في إدارة المجتمعات المختلطة التي تتألف من البربر

والرومان وهو ما يدل عليه وجود جاليات مرومنة على طول المناطق الحدودية للمقاطعات.

نمت المملكة المورية الرومانية لتصبح مملكة بربرية كاملة عند انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية لا تختلف تماما عن تلك التي نشأت في أجزاء أخرى من الإمبراطورية السابقة، فعلى الرغم من أن معظم الممالك البربرية الأخرى مثل ممالك القوط الغربيين والوندال كانت بالكامل داخل حدود الإمبراطورية الرومانية السابقة، امتدت المملكة المورية الرومانية إلى ما وراء حدود الإمبراطورية الرسمية التي تشمل أيضا الأراضي البربرية التي لم يسيطر عليها الرومان.

المملكة المورية الرومانية (باللاتينية: Regnum Maurorum et Romanorum) كانت مملكة بربرية مسيحية مستقلة تتمحور حول مدينة ألطافا وتسيطر على جزء كبير من إقليم موريطانيا القيصرية الروماني القديم الواقع في شمال الجزائر حاليا. تشكلت المملكة لأول مرة في القرن الخامس حيث ضعفت السيطرة الرومانية على المقاطعة وتم تركيز الموارد الإمبراطورية في أماكن أخرى لا سيما في الدفاع عن شبه الجزيرة الإيطالية نفسها من غزو القبائل الألمانية. تأسست مملكة ألتافا قبل ميلاد النبي محمد صلى الله عليه و سلم بحوالي 100 عام ، و قد ذكر المؤرخ البيزنطي بروكوب الملك ميفانياس مؤسس المملكة على أنه والد ماسوناس ، و على الأغلب فإنه ثار على الوندال عام 479 ميلادي و أسس مملكته في غرب الجزائر حاليا ، و إتخذ من مدينة ألتافا عاصمة لمملكته (حاليا مدينة أولاد ميمون شرق تلمسان) . و قد عاصر هذا الملك ملوك عظام لعل أشهرهم هو : كلوفيس ملك الفرنج (فرنسا) ، و ممالك كبرى مثل : الفرس الساسانيين

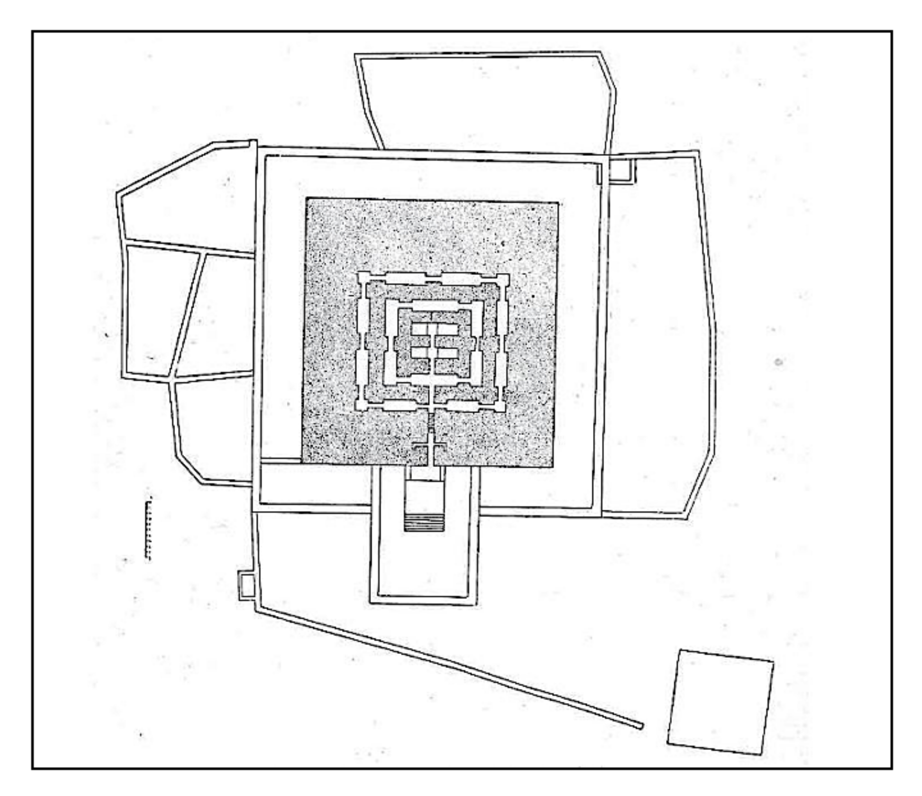
و الروم البيزنطيين و القوط بإسبانيا. يذكر سيمون بيار أن الملك ميفانياس تصاهر مع لوداس زعيم الأوراس و زوج له إبنته ، و كان ذلك بمثابة تحالف بينهما ضد أورتاياس أحد الثائرين من البربر في منطقة الحضنة ، و الذي إتخذ من مدينة زابا قرب سطيف قاعدة له.

تأسست في شمال إفريقيا أيام ظهور مملكة ألتافا عدة إمارات محلية : إمارة الحضنة ، إمارة الأوراس ، إمارة الأجدار ، إمارة كابايون ، إمارة النمامشة ، إمارة وليلي بالمغرب . لكن هذه الإمارات كانت أشبه بممالك الطوائف ، و لم تصمد أمام قوة مملكة ألتافا القوية و جيرانها البيزنطيين.

و لم تصلنا إلا معلومات قليلة حول مملكة الأجدار التي أسستها قبيلة الأجدار Gadarenes سليلة قبيلة الكوتوبيتاي (Cotopitae) البونيقية التي نزحت إلى غرب نوميديا بعد قمع ثورة الدوارين، و كانت تقيم بالمنطقة المعروفة الآن بتيارت و حتى الونشريس و أسست مملكة الأجدار (Djeddars) التي ازدهرت بين عامي 466 و 480 ميلادي، و التي وضع أسسها الأسقف الدوناتي الجداري هونوراتوس Honoratus المعروف عند الجداريين بتسمية (كبدون)، و هو الذي حدد قواعد السلطة خصوصا بعد موقعة الشهداء الدوناتيين الجداريين الذين كانت من بين ضحاياهم شقيقته روبا، و كان ملاكو (Malchus) هو أول من حكم هذه المملكة و كان ينحدر من أجدار قبيلة الكوتوبيتاي البونيقية (القطوبيون)، و دفن هناك في منطقة لا زالت تحمل اسمه، و قد عرفت المملكة نشاطا ثقافيا و أدبيا كبيرا، فقد شهدت تأثر الأجدار

البونيقيين بالثقافة اللاتينية حتى كادوا أن يترومنوا رغم حفاظهم على لسانهم البونيقي المحلي، كما ظهر منهم أدباء و مؤرخون يكتبون باللاتينية مثل المؤرخ أبداس الكوتابي (ABDAS COTOPITAEUS) الذي كتب عن تاريخ الأجدار منذ عصر الدخول الثاني و حتى موقعة الأربع و الأربعين شهيدا، و قد كان مصدرا غنيا اعتمد عليه ابن حمو الغرناطي في كتبه حول الأجدار، كما أن نظام الحكم الملكي في مملكة الأجدار لم يكن وراثيا بل حدث و أن سلم ملاكو السلطة إلى أحد البربر الذين كانوا يعيشون معهم تحت ظل مملكة واحدة، فمن بين البربر الذين حكموا مملكة الأجدار نجد الملك مصيناس، و كان الرومان الذين بقوا في بلاد المغرب بعد زوال دولتهم يلتجؤون إليه ليحتموا به من فتك الوندال بهم، و كانوا يخضعون له و يعترفون بسيادته عليهم، و كان من أقوى الملوك.

و كانت نهاية الملك ميفانياس مأساوية حيث تم اغتياله عام 508 ميلادية من طرف صهره يبداس منافسه في السيطرة على بلاد المغرب القديم، للأسف فإننا لا نملك دليلا أثريا يثبت أن ميفانياس كان ملكا إلا الكتابات التي ذكرها في شأنه المؤرخ بروكوب البيزنطي، و بعد اغتيال ميفانياس خلفه ابنه الملك ماسوناس الذي اعتلى عرش مملكة ألتافا عام 508 م و الذي لن يكتفي بحدود المملكة التي تركها له والده ، بل إنه سيقوم بالتوسع شرقا و غربا حتى تمكن من السيطرة على أجزاء كبيرة من شمال إفريقيا.



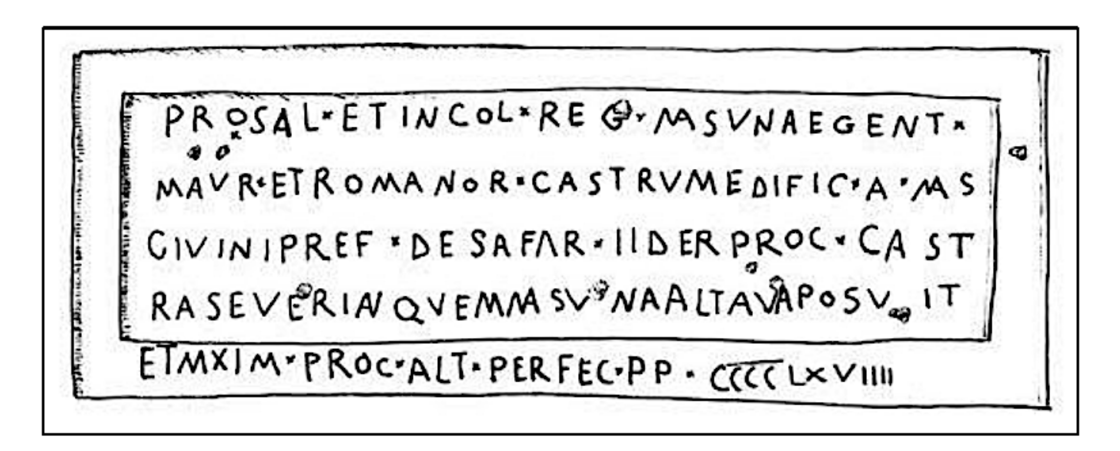
الشكل (4) مخطط تفصيلي لضريح من مملكة الأجدار

-لعاذير الجداري و مملكة ألطافا:

سمى ماسونا نفسه ب ملك شعوب المور والرومان (Rex gentium Maurorum et Romanorum) ولا يعرف بهذا الاسم إلا من خلال نقش على تحصين في ألطافا (أولاد ميمون حاليا بمنطقة تلمسان) يعود لتاريخ 508 م، عرف ماسونا بامتلاكه لمدينة ألطافا التي يفترض أنها كانت العاصمة بفضل بروزها تحت الملوك اللاحقين ومدينتين أخريين على الأقل هما كاسترا سيفيريانا وصفر كما ذكر المسؤولين الذين عينهم هناك، وكانت السيطرة على كاسترا سيفيريانا مهمة بشكل خاص كونها مركز لأبرشية الكنيسة.

و قد جاء في نقش تحصين ألطافا: المسؤولون الثلاثة المعينون هم مسجيفين (حاكم صفر) ولعاذير (وكيل كاسترا سيفيريانا) ومكسيميانوس (وكيل ألطافا) بتاريخ 469 (وهو تاريخ تأسيس المقاطعة ويتوافق مع 508 م).

و كان لعاذير LIDER قبل أن يتم تنصيبه وكيلا على كاسترا سيفيريانا قريبا من استلام حكم مملكة الأجدار قبل سقوطها على يد ملك ألطافا ماسونا الذي استدعاه عام 509 ميلادية للإشراف على كاستا سفيريانا بسيدي بلعباس حاليا، و حسب ابن حمو الغرناطي فإن المحليين يلقبونه بالملك (أدرين) أو (عزرين) و هي تسمية محلية تأصيلها البوني هو لعاذير/إيلاذير (LDR’) و تعني إيل القدير و إيل يعزر (الله يساعد).



الشكل (5) نقش تحصين ألطافا الذي ذكر فيه لعاذير الجداري

وكانت المراكز الإدارية الأساسية للمملكة موجودة على الواجهة الإقليمية بنوعين متمايزين من السكان وهما إقليم روماني ساحلي مستقر للرومان وإقليم واقع حول الحدود الرومانية السابقة وخارجها للقبائل المورية (مور أو بربر). كان مواطنو المدن الرومانية خاضعين لإدارة رسمية ومنظمة برئاسة مسؤولين معينين، مثل أولئك الذين عينهم الملك ماسونا.

استمدت المملكة المورية الرومانية قوتها البشرية العسكرية من القبائل البربرية التي تم التحكم فيها من خلال السيطرة على الأشخاص النافذين مثل زعماء القبائل وذلك بإصدار الأوسمة لهم وتمليكهم العقارات. استمرت المملكة المورية الرومانية بكونها جزء من العالم الغربي اللاتيني وذلك نتيجة تبنيها للتنظيم العسكري والديني والاجتماعي للإمبراطورية الرومانية، فالهيكل الإداري المستخدم من قبل حكام المملكة يشير إلى هوية سياسية رومانية في المنطقة. هذه الهوية السياسية الرومانية كانت تحتفظ بها ممالك بربرية أخرى أصغر في المنطقة أيضا كما هو الحال في مملكة الأوراس حيث ادعى الملك ماستييس لقب إمبراطور خلال حكمه في حوالي عام 516 م كونه لم يكسر الثقة مع رعاياه البربر أو الرومان.

تبين السجلات الرومانية الشرقية التي تشير إلى المملكة الوندالية والتي كانت تحتل جزءا كبيرا من الإقليم الروماني القديم في إفريقيا والأجزاء الساحلية من موريتانيا في كثير من الأحيان إلى ما يتعلق بثالوث من الشعوب (الوندال والألان والمور) وعلى الرغم من أن بعض البربر قد ساعدوا الوندال في غزواتهم لأفريقيا إلا أن التوسع البربري في أغلب الأحيان كان أكثر تركيزا ضد الوندال وليس معهم، الأمر الذي أدى إلى بعض التوسع في المملكة المورية الرومانية وغيرها من ممالك البربر في المنطقة مثل مملكة الأوراس.

حدد مؤرخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية بروكوبيوس ملك البربر الذي تحالف مع قوات الإمبراطورية الرومانية الشرقية في عام 535 م ضد المملكة الوندالية خلال الحرب الوندالية باسم ماسوناس (والذي يعتبر غالبا نفسه ماسونا).

عندما وصلت قوات بيليساريوس وهو أحد أعظم جنرالات الإمبراطور جستنيان الأول والقوات الرومانية الشرقية إلى شمال أفريقيا لغزو واستعادة الحكم الروماني على المنطقة، قبل حكام البربر المحليين عن طيب خاطر الحكم الإمبراطوري مطالبين فقط برموز مكاتبهم، تاج من الفضة وصولجان من الفضة المذهبة وسترة مبطنة وأحذية مذهبة. العديد من الحكام البربر سوف يثبتون لأنهم بشكل أساسي ملوك عملاء، في حين أولئك الحكام الذين لم يكونوا متاخمين مباشرة للأراضي الإمبراطورية كانوا مستقلين إلى حد ما على الرغم من أنهم نظريا لا يزالون يشكلون جزءا من الإمبراطورية، فكانوا يعاملون بقسط أكبر من المجاملة مقارنة بأولئك الذين تحد ممالكهم مباشرة الإمبراطورية وذلك للحفاظ عليهم في الطابور.

بعد إعادة فتح الروم الشرقيين لمملكة الوندال، بدأ المحافظون يواجهون مشاكل مع القبائل البربرية المحلية. تم غزو مقاطعة بيزاسينا (دولة تونس اليوم) والحامية المحلية بما في ذلك هزم القادة غيناس وروفينوس. شن الحاكم المعين حديثا في ولاية أفريقيا الإمبراطورية صولومون العديد من الحروب ضد هذه القبائل البربرية بقيادة جيش من حوالي 18000 رجل في بيزاسينا. كان صولومون يهزمهم ويعود إلى قرطاج لكن البربر يقومون مرة أخرى ويجتاحون بيزاسينا ولكن صولومون هزمهم مرة أخرى هذه المرة بشكل حاسم و بعثر قواتهم. أما جنود البربر الباقون على قيد الحياة فقد تراجعوا إلى نوميديا حيث انضموا إلى قوات يبداس ملك الأوراس.

شجع ماسونا وملك بربري آخر هو أورتايا (الذي حكم مملكة في مقاطعة موريطنيا سيتيفينسيس السابقة) المتحالفين مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية صولومون على

ملاحقة أعدائه البربر في نوميديا وهو ما فعله. لم يشرك صولومون بيداس في المعركة وذلك لعدم ثقته في ولائهم وبدلا من ذلك بنى سلسلة من المواقع المحصنة على طول الطرق التي تربط بيزاسينا بنوميديا.

توفي ماسونا في عام 535 م ونجح ماستيغاس (المعروف أيضا باسم ماستناس) في خلافته كملك للمور والرومان. ويذكر المؤرخ بروكوبيوس أن ماستيغاس كان حاكما مستقلا تماما وكان يحكم ما يقرب من كامل إقليم موريطانيا القيصرية السابق باستثناء عاصمة المقاطعة السابقة قيصرية التي كانت تحت سيطرة الوندال وكان يخضع لسيطرة الإمبراطورية الرومانية الشرقية خلال فترة وجوده. ظل حكام المملكة الموريتانية الرومانية، وغيرها من الممالك البربرية، ينظرون إلى أنفسهم كمواطنين للإمبراطور الروماني الشرقي في القسطنطينية، حتى عندما كانوا في حالة حرب معه أو شاركوا في غارات على الأراضي الإمبراطورية، ومعظم الحكام البربر يستخدمون عناوين مثل الدوكس أو ريكس (وتعني ملك).

آخر ملك مسجل للمملكة المورية الرومانية كان غارمول (المعروف أيضا باسم غارموليس) وهو من سيقاوم حكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية في أفريقيا. في أواخر ستينات القرن الخامس شن غارمول غارات على الأراضي الرومانية لكنه فشل في السيطرة على أي مدينة كبيرة، سجل المؤرخ القوطي جون بيكلارو مقتل ثلاثة جنرالات متتابعين من قبل قوات غارمول، المحافظ البريتوري ثيودور (في عام 570 م) وقائدي جنود إمبراطوريين (عام 570 م) وأمابيليس (عام 571 م). وقد مثلت نشاطاته هاته خاصة عندما تزامنت مع هجمات القوط الغربيين في إسبانيا تهديدا واضحا لسلطات

المحافظة. لم يكن غارمول قائدا لقبيلة شبه بدوية فقط، بل لمملكة بربرية مكتملة التكوين وبجيش نظامي. وهكذا أعاد الإمبراطور الروماني الشرقي الجديد تيبيريوس الثاني قسطنطين تعيين توماس كمحافظ في أفريقيا، وتم تعيين الجنرال القدير جيناديوس قائدا للجنود بهدف واضح وهو تقليص مملكة غارمول. كانت التحضيرات طويلة ودقيقة، لكن الحملة نفسها التي بدأت في 577 أو 578 كانت قصيرة وفعالة باستخدام جيناديوس تكتيكات الإرهاب ضد أتباع غارمول الذي هزم وقتل في 578 م.

مع هزيمة غارمول انهارت المملكة المورية الرومانية، كما أعادت الإمبراطورية الرومانية الشرقية بعض أراضي المملكة لا سيما الممر الساحلي لمقاطعات موريطنية الطنجية وموريطانيا القيصرية القديمتين.

ظلت ألطافا عاصمة مملكة بربرية مرومنة تحمل إسمها رغم كون هذه المملكة أصبحت أصغر حجما بكثير من مملكة ماسونا وغارمول. في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس نمت المسيحية لتكون الديانة المهيمنة بالكامل في مملكة ألطافا البربرية مع تأثيرات توفيقية للمعتقد البربري التقليدي حيث بنيت كنيسة جديدة في العاصمة ألطافا في هذه الفترة. ألطافا والممالك اللاحقة الأخرى للمملكة المورية الرومانية كمملكة الورسنيس ومملكة الحضنة شهدت صعودا اقتصاديا وبناء العديد من الكنائس والتحصينات الجديدة. شهدت ولاية أفريقيا الإمبراطورية الرومانية الشرقية وفي وقت لاحق إكسرخسية قرطاج المزيد من ثورات البربر التي تم إخمادها وقبول العديد من القبائل البربرية باعتبارها فيوديراتي لأنها كانت كذلك مرات عديدة في الماضي.

كان آخر ملك بربري مرومن معروف بالحكم من ألطافا هو كسيلة والمتوفى عام 690 م في قتاله ضد الفتح الإسلامي للمغرب العربي. كما كان قائدا لقبيلة أورابا البربرية وربما رئيسا مسيحيا لاتحاد صنهاجة، وهو معروف بأنه قاد مقاومة بربرية عسكرية ضد غزو الأمويين للمغرب الكبير في ثمانينيات القرن السادس، في عام 683 م تعرض عقبة بن نافع لنصب كمين وقتل في معركة بسكرة من قبل كسيلة والذي أجبر جميع العرب على إخلاء القيروان التي تأسست لتوها والانسحاب إلى برقة. لكن في عام 688 م وصلت التعزيزات العربية من عبد الملك بن مروان تحت قيادة زهير بن قيس فقابله كسيلة سنة 690 م بدعم من القوات الرومانية الشرقية في معركة ممس حيث هزم العدد الهائل من أورابا والرومان وقتل كسيلة.

مع وفاة كسيلة انتقلت شعلة المقاومة إلى قبيلة تعرف باسم قبيلة جراوة الزناتية البترية، التي كانت تسكن جبال الأوراس، خاضت قواته في وقت لاحق بعد موته تحت قيادة الكاهنة ملكة مملكة الأوراس والحاكمة الأخيرة للبربر المرومنين معارك ضد الأمويين إنتهت بمقتل الكاهنة في معركة ضارية في منطقة طبرقة.

-العقيدة الأريودوناتية الجدارية:

تذكر لنا المصادر التاريخية ارتباط الأجدار بالدوناتية و الدفاع عنها و الذي تجسد في نهوضهم بثورة الدوارين و لو أن الروايات التراثية الجدارية تربطهم بالأريوسية و لكن المذهبين يشتركان في عقيدة التوحيد الإلهية بل أن الواحدة منها قد أعطت و أخذت من الأخرى و نلاحظ هذا الارتباط الوثيق متمثلا في مجيء الوندال الأريوسيين إلى شمال

إفريقيا طاردين للرومان آخذين بثأر أشقائهم الدوناتيين الذين تعرضوا لمجازر و اضطهادات شنيعة، فمن المؤكد أن الجداريين قد تأثروا بكلا المذهبين و مشوا على عقيدة توحيدية مشتركة أريودوناتية (Areodonatism) تميزت عبر الحقب بخصائص و معتقدات مميزة أهمها ما يتعلق بصلب المسيح و الاعتقاد بتحريف الإنجيل.

و مما يعتقده الجداريون بخصوص صلب المسيح في مذهبهم الأريودوناتي هو إيمانهم بأن سمعان القوريني هو من صلب حقا بدل السيد المسيح، سمعان القوريني هو أول قديس مسيحي من أفريقيا و لعل اعتقادهم هذا مبني على محاولاتهم الدائمة إضفاء الطابع المحلي على معتقداتهم الإيمانية بل إن هذا القول قد انتشر فعلا في القرن الثاني، حيث يقول فنتون شارح متى: إن إحدى الطوائف الغنوسطية التي عاشت في القرن الثاني قالت بأن سمعان القوريني قد صلب بدلا من يسوع. وقد استمر إنكار صلب المسيح فكان من المنكرين الراهب تيودورس عام 560 م والأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص عام 610 م، و قد سمي سمعان القوريني بهذا الاسم نسبه إلى كونه من قورينا بقورينائية شرق ليبيا.

عندما حكم بيلاطس البنطي ظلما على السيد المسيح وكانت محاكمة سريعة و ظالمة جهز الجنود الصليب لكي يحمله السيد المسيح إلى الجلجثة فكانت تحتاج إلى أن يسير خارج المدينة و كان ثقل حجم الصليب لا يتحمل لانهم كانوا يصنعونه من الخشب الثقيل جدا، و حسب نفس الرواية فقد تعرض السيد المسيح لمعاناة نفسية وجسدية طيلة ليلة الصلب ،وصباح يوم الصلب و بعد الجلد الروماني العنيف الذي تعرض له السيد

المسيح، واستكمال المحاكمة، خرج السيد المسيح وهو حامل صليبه من قلب مدينة أورشليم، متجها إلى أعلى جبل الجلجثة خارجا عن أورشليم.

وقع السيد المسيح على الأرض تحت الصليب، وهو صاعد في طريق الجلجثة، لأن جسده قد نزف كمية كبيرة من الدماء في الداخل والخارج، في الداخل من جراء تمزق الشرايين المحيطة بالقفص الصدري نتيجة الجلد بكرباج من أعصاب البقر، تنتهي أطرافه بقطع معدنية أو أجزاء مدببة من عظام البقر. والكرباج تنغرس نهايته في داخل الجلد مع كل جلدة بسيوره الثلاثية، وتمزق في الداخل الشرايين المحيطة بضلوع القفص الصدري وتحدث نزيفا داخليا، وفي الخارج كان الدم ينزف من رأسه المتوج بالشوك، ومن الجراحات السطحية الناتجة عن الجلد العنيف بأعصاب البقر على الطريقة الرومانية و قد كان الجلد عند الرومان قاصرا على العبيد حسب القانون الروماني.

ومع هذا النزيف الذي استمر منذ وقت الجلد أثناء المحاكمة، بدأ السيد المسيح يشعر بالإعياء، وعدم القدرة على بذل المجهود المعتاد، فكم بالأولى حمل هذا الصليب الثقيل، وهو يزحف بثقله من خلفه على أرض غير مستوية وصاعدة، تلاحقه كرابيج من العسكر الرومان بغير شفقة ولا رحمة ، وكان طريق الجلجثة طويلا ومتصاعدا، كما كان الصليب ثقيلا ومتعامدا. وجعل قائد المائة سمعان القيرواني ليحمل معه الصليب إلى طريق الجلجثة، الجدير بالذكر أن سمعان القيرواني من قورينا (شحات) بقورينائية (برقة) شرق ليبيا وهو الذي حمل الصليب مع المسيح حتى يصلب المسيح عليه، ولأنه من شمال أفريقيا فيعتبره البعض أول قديس مسيحي من أفريقيا. واعتبر أبناءه ألكسندر و روفوس من أوائل المبشرين المسيحين والمذكورين في الإنجيل.

يقول مرقس: ثم خرجوا به ليصلبوه، فسخروا رجلا مجتازا كان آتيا من الحقل، هو سمعان القوريني أبو ألكسندروس و روفس ليحمل صليبه.

أما عن عقيدة تحريف الإنجيل فإنها قد برزت عندهم في القرن السادس الميلادي خصوصا قبل الفتح الإسلامي بقليل عندما التقوا بيعقوب القرطاجني و الذي أخبرهم بمجيء مخلص دعاه بالمسيح و قال اسمه محمد و زعم أنه يملك نسخة من إنجيل تركه الحواري برنابا تؤكد نبوءة مجيء النبي محمد المخلص الموعود، و استمرت هذه العقيدة لدى الأجدار حتى رحيلهم إلى الأندلس حيث زعموا أنهم قد حافظوا على نسخة قديمة من الإنجيل تدعى إنجيل برنابا و قد دونوه و نشروه في الأندلس.

و برنابا هو حواري السيد المسيح و اسمه (يوسف) ويلقب بابن الوعظ، وهو لاوي قبرصي الجنسية، وهو خال (مرقس) الليبي صاحب الإنجيل فيما يقال، وكان من دعاة النصرانية الأوائل، ويظهر من إنجيله أن له مكانة لدى المسيح عليه السلام، والنصارى يرون أنه من الدعاة الذين لهم أثر ونشاط ظاهر، وكان من أعماله البارزة أنه باع حقله وأتى بقيمته من النقود ووضعها تحت تصرف الدعاة، وحين ادعى بولس (شاؤول اليهودي) الدخول في دين المسيح عليه السلام خاف منه الحواريون لما يعلمون من سابق عداوته، فشفع له برنابا عندهم فقبلوه ضمن جماعتهم، ثم اختلف معه بعد فترة من العمل في الدعوة سويا وانفصلا.

أقدم خبر عن إنجيل برنابا كان قريبا من عام 492 م، وذلك حين أصدر البابا جلاسيوس الأول أمرا يحرم فيه مطالعة عدد من الكتب، كان منها كتاب يسمى (إنجيل برنابا) وهذا كان قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، ثم لم يظهر له خبر بعد ذلك إلا

في أواخر القرن السادس عشر الميلادي حيث عثر أحد الرهبان اللاتينيين وهو فرامرينو على رسائل لإريانوس يندد فيها ببولس.

تعد أقدم وثيقة ذكرت إنجيل برنابا، تلك التي تحدثت عن إحدى المخطوطتين المعروفتين للإنجيل، هي مخطوطة موريسكية مأخوذة من مخطوطة أصلية كتبها أحد الأجدار ، و هي محفوظة في مدريد و ترجع إلى عام 1634م كتبها رجل يدعى إبراهيم الطيبيلي في تونس. وصف فيها كيف تنبأ الإنجيل بمقدم النبي محمد، ووصفه الكاتب بقوله : إنجيل القديس برنابا حيث يمكن للمرء أن يجد النور.

و قد أشار جورج سيل إلى كلا النصين الإيطالي والإسباني سنة 1734م في كتابه (محاضرة أولية حول القرآن)، حيث قال: و لدى المسلمين أيضا إنجيل بالعربية، منسوب للقديس برنابا، والذي فيه يرتبط تاريخ يسوع المسيح بطريقة مختلفة جدا عن ما نجده في الأناجيل الحقيقية، ومتوافق مع تلك الروايات التي اتخذها محمد في كتابه القرآن. ترجم الموريسكيون في إفريقيا هذا الإنجيل للإسبانية، كما تحتوي مكتبة الأمير يوجين السافويي، على مخطوطة قديمة بها ترجمة إيطالية لنفس الإنجيل، ترجمت، من المفترض، ليستخدمها المرتدون. يبدو هذا السفر كما لو كان لم يتم تزويره على يد المحمديين، على الرغم من أنهم بلا شك حرفوه وغيروه من أجل خدمة أهدافهم، وخاصة استبدالهم كل (براقليط) أو (المعزي) الموجودة في هذا الإنجيل الملفق بكلمة (فارقليط) والتي تعني الشهير أو المنير، والتي من خلالها يتظاهرون بأن الإنجيل تنبأ بنبيهم بالاسم، وأن هذه إشارة إلى اسم محمد بالعربية، وهم يقولون ذلك لتبرير المقطع الذي أدخلوه في القرآن لينص على أن يسوع

المسيح تنبأ بمجيء نبي من بعده إسمه أحمد، وهو اسم آخر مشتق من الجذر نفسه الذي جاءت منه كلمة محمد وبنفس الأصل.

كما أن المعتقدات المحلية الدوناتية/الأريوسية العتيقة قد تركت آثارها عند الأجدار حتى بعد اعتناقهم الإسلام، فقد كان لهم معتقد يقول بأن المجيء الثاني للمسيح سيكون على أعالي جبل أجدال (منعاء) باليعقوبية حيث سينزل المسيح من السماء و سيكون أول ما سيفعله هو إحياء النبي يوبع، فيؤمن الناس بأنه المسيح حقا ليذهب للأرض المقدسة في أورشليم مع جيشه من الأجدار فيحسبه الناس المسيح الدجال فيقاتلونه لكنه ينتصر عليهم ثم يذهب إلى صخرة الجلجلة التي كان سمعان القوريني مدفونا فيها بدل المسيح فيحييه ليؤمن الناس بمجيئه فيسلمونه الصولجان ليحكم الأرض المقدسة بالعدل، و نجد في المصادر الإسلامية تشابها مع الرواية الجدارية بخصوص مجيء المسيح من ناحية المغرب و فتحه بيت المقدس، حيث أنه ورد في حديث نبوي أنه حدثنا أحمد بن قاسم ، وعبد الوارث بن سفيان قالا ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، قال حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، قال حدثنا روح بن عبادة ، قال حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة بن جندب أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يقول : إن الدجال خارج ، وهو أعور العين الشمال ، عليها ظفرة غليظة ، وأنه يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى ، ويقول للناس أنا ربكم ، فمن قال أنت ربي فقد فتن ، ومن قال ربي الله حتى يموت على ذلك ، فقد عصم من فتنته ولا فتنة عليه ، فيلبث في الأرض ما شاء الله ، ثم يجيء عيسى ابن مريم من قبل المغرب مصدقا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – وعلى ملته ، فيقتل الدجال ، ثم إنما هو قيام الساعة.

و قوله في حديث آخر: و الذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب و يقتل الخنزير و يضع الجزية و يفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا و ما فيها.

و قد تأثر معتقد الأجدار كثيرا بالتصوف طوال إقامتهم بالأندلس و ازدهر بشكل أكبر حين عودتهم إلى بلادهم حيث تزامنت مع انتشار ظاهرة التصوف الشعبي الذي تأثر في مبادئه وأشكال ممارسته بمتصوفة مغاربة تمكنوا من نشر صورة جديدة للتصوف تدمج في تركيبتها الواقع الحضاري لسكان الشمال الإفريقي. وقد ساعد في انتشار التصوف في مضمونه الجديد وجود عدة عوامل كانت إفرازا لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية سبقتها لكنها تفاعلت فيما بينها وخلقت واقعا سياسيا وثقافيا واقتصاديا جديدا و مخيالا جمعيا جديدا إذ كان القرن السابع للهجرة منعطفا هاما في تاريخ التصوف، كما أصبح شيوخ الصوفية يمثلون المقدس الملموس و الوسيط المفضل. مما جعلهم محل تقدير وتبجيل ومهابة. فبلوغ هذه الدرجة من المهابة والقرب من الله جعل من الولي صاحب الكرامة والبركة مصدر تأثير إيجابي على قوى الشر، فهو بمثابة القديس لهم كما كانوا يؤمنون في معتقداتهم القديمة، فإذا نظرنا إلى القرن الرابع عشر ميلادي نجد أن الزوايا قد لاقت انتشارا ملحوظا داخل الأرياف وبالوسط القبلي عموما، و سرعان ما ينتشر خبر وجود شيوخ الصوفية بالأرياف، إذ يمثل هؤلاء شريحة مميزة تحظى بالاحترام والتقدير والمهابة إلى حد المبالغة والغلو أحيانا. هم مطلعون على أصول الدين ويقرؤون القرآن ويعلمونه، كما أنهم يمثلون في نظر الناس الشريحة مستجابة الدعاء، الأقرب إلى الله. ومع توافد الطلبة والمريدين والزوار من الأرياف المجاورة وحتى البعيدة، تصبح الحاجة ملحة

إلى مكان يأوي الوافدين ويطعمهم ويؤمن للبعض حياتهم، مكان يستريح فيه المسافر ويلوذ به الهارب طلبا للحماية في وقت تصاعدت فيه أعمال العنف بين القبائل وداخل فروع القبيلة الواحدة. الأمر الذي أفسح المجال للولي ليوسع نفوذه في غياب السلطة السياسية أو بسبب بعدها عن مواقع الصراع. وهكذا عرفت هذه المرحلة من تاريخ إفريقية نشأة أولى زوايا الأرياف الداخلية ببلاد المغرب لتستقبل زوار الشيخ وطلبته ومريديه وتقدم خدمات أخرى للوافدين عليها، وعندما يموت الشيخ يخلفه أحد أبنائه ممن تميز بقربه منه وأجاد الأخذ عنه. وتأخذ ذكرى الشيخ مكانة مميزة في مخيال العامة وتبدأ الأساطير والأخبار تحاك أو تتداول حول الشيخ وكراماته وسرعان ما تنتشر أخباره بعد وفاته حتى أن المخيال الشعبي، وبعض الصوفية، يجعل بركته تتواصل بعد وفاته. وهكذا تتردد الأقوال حول شفاء المرضى على يديه وشفاعته حتى ينزل المطر بفضل بركته التي لا تنقطع.

-يعقوب القرطاجني و تأسيس اليعقوبية :

حسب ابن حمو الغرناطي، فإن أول مبشر بقدوم النبي محمد كان شخصا يدعى يعقوب، و كان تاجرا يهوديا قدم من الشام إلى قرطاجنة حيث أرغم على اعتناق النصرانية، و في أيام الفتح و خراب قرطاجنة فر منها إلى الغرب حيث دله أحد الكهنة على الجداريين، فأخبرهم بقدوم النبي محمد الذي اعتبره اليهود في البداية مخلصا لهم، و أنهم إن قبلوا مبايعته فإنه سوف يخلصهم هم كذلك من الرومان (البيزنطيين)، و أحضر معه إنجيلا قائلا أنه إنجيل برنابا تلميذ المسيح و أنه مذكور فيه نبوءة تقول بأن تلاميذ أحد الأريسيين سوف يكون المخلص الموعود لشعوب الأرض و يدعى محمد، و قد أصبح يعقوب

القرطاجني بعدها أريسيا، و عندما سمع الجداريون بالانتصارات التي حققتها الفتوحات الإسلامية و الهزائم المتتالية التي تعرض لها البيزنطيون على يد المسلمين ، اعتقدوا فعلا أن النبي محمد قائد المسلمين هو المخلص الموعود و قالوا أنه المجيء الثاني للمسيح ، لكنهم سمعوا أن جيش الفاتحين لم يأتي مع محمد المخلص و أنه قد مات في بيت المقدس، فعينوا يعقوب قائدا لهم و زوجوه بنت أحد كهانهم و سموا أحد الأراضي التي كانوا يسكنوها على اسمه و هي أرض اليعقوبية .

و قد جاءت أقدم إشارة تاريخية إلى النبي محمد في كتاب تعاليم يعقوب المتنصر حديثا، وهو نص دفاعي عن المسيحية تم تأليفه على الأرجح في إفريقية عام 634، وذلك أثناء حملة التنصير القسري لليهود بأمر من الإمبراطور هرقل، والنص منسوب إلى تاجر يهودي من فلسطين يدعى يعقوب، كان في رحلة تجارية إلى قرطاجة وأجبر على التنصر بعد فترة من سجنه، وتم دفعه للدفاع عن المسيحية أمام أترابه من المتنصرين حديثا وكان أحد أقرباء هؤلاء المتنصرين ويدعى جوستوس قد وصل من فلسطين وراح يحكي عما سمعه من أخيه إبراهام في قيصرية عن ظهور نبي، وعن أن العرب قتلوا ضابطا بيزنطيا من الحرس الإمبراطوري.

III-الأجدار في العصر الإسلامي

تشير المصادر الإسلامية الوسيطة إلى وجود ثلاثة عناصر للسكان في شمال إفريقيا زمن الفتح العربي الإسلامي وهم: البربر ، الأفارقة أو الأفارق ، البيزنطيون (الروم). و قد قسم الحسن الوزان (القرن 16م) سكان إفريقيا إلى :عنصر فينيقي قديم، عنصر عبري، و عنصر لاتيني، و عنصر أصلي (بربري).

و أما الأفارق و هؤلاء حسب رأي غوتيه هم بقايا الشعب القرطاجني القديم أي البونيقيون و كانوا يشتغلون بالزراعة والصناعة،وقد تأثروا لاحقا بالحضارة الرومانية و البيزنطية و تعلموا لغتهم بل أن بعضهم انتسب إليهم وعنهم أخذوا المسيحية ، ودخل أكثر الأفارقة إلى الدين الإسلامي بعد الفتح وعلى الرغم من ذلك حافظوا على لغتهم الخاصة التي هي مزيج من لسانهم البوني الأصلي و بعض التأثيرات من اللغة اللاتينية واللهجة المحلية البربرية، فهي لغة مميزة لا يتحدث بها غيرهم، و كان الأفارقة يسكنون النواحي الساحلية العامرة المحيطة بالمدائن البيزنطية والأجزاء المزروعة الداخلة في الرباطات البيزنطية ، و يذكر أن الأفارقة كانوا خصوما للبربر.

لقد تقلد بعض الأفارقة مسؤوليات إدارية و سياسية في ولاية إفريقية أشهرهم عبد الأعلى بن جريج، ولم يقتصر استيطان الأفارقة بالمناطق الساحلية بإفريقية البروقنصلية فقط، بل استوطنوا أيضا في المغرب الأوسط و الأقصى و حتى المناطق الداخلية كتاهرت

و تلمسان و فاس، وكانوا مؤيدين ومناصرين للخارجين على السلطة المركزية في المغرب، وقد أسلم الكثير منهم على يد العرب المسلمين بعد الفتح .

و إفريقية أوسط بلاد المغرب، وذكر المؤرخون الغربيون أن اسم أفريقيا هو اسم مأخوذ من جذر بونيقي و هو عفر (pr') و يعني الغبار ، أما المؤرخون العرب أمثال ابن خلدون و غيرهم فقالوا أنها سميت كذلك لأن إفريقش ابن أبرهة بن الرائش غزا نحو الغرب حتى انتهى إلى طنجة و جلب معه الكنعانيين ليسكنهم مع البربر، وهو الذي بنى إفريقية و باسمه سميت و سمي الكنعانيون الذين جلبهم معه بالأفارق.

واسم إفريقية يدل على بلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية، و ينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس، و يذكر أنه لما غزا إفريقش المغرب انتهى إلى موضع واسع رحيب كثير الماء ، فأمر أن تبنى هناك مدينة فبنيت و سماها إفريقية، كما أن هذا الاسم (إفريقية) كان غالبا في جزيرة العرب أيام الخلفاء الراشدين فقصدوا به تارة تونس وطرابلس وتارة تونس وحدها.

وبقي مصطلح إفريقية ذا مدلول واسع يدل على كل من تعود أصوله إلى شعب قرطاجنة القديم إلى أن ظهر مصطلح المغرب ، فضعف مدلوله تدريجيا واستقر على نطاق القيروان فاقتصر اسم إفريقية على المنطقة الممتدة من طرابلس حتى بجاية يؤيد ذلك ابن الدينار في كتابه (المؤنس في أخبار إفريقية و تونس) حيث يقول: و إفريقية أوسط بلاد المغرب. أي أن إفريقية تشمل القيروان وما أحاط بها من البلاد.

-استمرار اللغة البونيقية (لسان الأفارق) بعد الفتح الإسلامي :

كنا قد بينا سابقا بأن اللغة البونيقية أو كما كانت تسمى بلسان الأفارق ظلت محكية في بلاد المغرب القديم بعد سقوط قرطاجة (146 ق.م)، وقد تفرعت هذه اللغة الى لهجات بونية حديثة (neo punic) و هو الطور الذي يعرف عند علماء اللسانيات باللغة البونيقية الحديثة، هذا وقد استمر تدوين اللغة البونيقية بأحرفها الأصلية إلى غاية القرن الثالث، ثم نجد بأنها دونت بالحرف اللاتيني والاغريقي خاصة في نقائش اقليم المدن الثلاثة في ليبيا التي ترقى الى القرنين الرابع والخامس ميلادي وكذلك في كتابات القديس أوغسطين في القرن الرابع ، ونحن نعرف من اقتباسات هذا الأخير أن البونيقية ظلت محكية في هذا القرن وظلت أيضا محكية في القرن الخامس والسادس ميلادي حسب شهادة المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس والكاتب السرياني سكاريفوس، وبهذا نكون على يقين تام أن اللغة البونيقية الفينيقية ظلت حية في أرض المغارب الى غاية الفتح الاسلامي على الأقل، حيث أن البونيقية هي التي مهدت الطريق لشقيقتها العربية (عربية مضر وربيعة وقحطان) في بلاد المغرب العربي الاسلامي، حيث يعتقد أن القادة المسلمين تمكنوا من التواصل مع القبائل البربرية عن طريق لغة مشتركة بينهم، و قالوا أنها البونيقية لأنها استمرت كلغة دينية للدوناتيين و الأريوسيين الموحدين في شمال إفريقيا، كما يؤكد الباحثون في اللسانيات أن ظهور اللسان الدارج المغاربي كان امتدادا للسان البونيقي الذي تأثر بعربية الفاتحين، ذلك لأن البونيقية و العربية من نفس العائلة اللغوية السامية و بالتالي فإن تأثير العربية في البونيقية أدى إلى ظهور الدارجة المغاربية ذات الأصل السامي و التي لا زالت تحافظ إلى يومنا هذا على العديد من جذورها البونيقية.

-الوجود البوني بعد الفتح حسب الروايات الإسلامية الوسيطة :

ينقل المؤرخون أخبار الشعوب التي سكنت بلاد المغرب بعد الفتح فقد ورد في كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته : و من القيروان إلى بلاد الزاب عشر مراحل و مدينة الزاب العظمى طبنة و هي التي ينزلها الولاة و بها أخلاط من قريش و العرب و الجند و العجم و الأفارقة و الروم و البربر. كما أن المؤرخ الناقل العربي المسلم أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (404 هـ –487 هـ) يفاجئنا بشهادة تاريخية أثارت الكثير من الجدل بين المؤرخين والباحثين، حول اللغة التي كان يتكلمها أهل مدينة سرت الليبية في القرن الحادي عشر ميلادي، حيث يقول البكري عن أهل هذه المدينة: ... ولهم كلام يتراطنون به ليس هو بعربي ولا عجمي ولا بربري ولا قبطي ولا يعرفه غيرهم ... وبطبيعة الحال لن يكون هذا الكلام بالاغريقي أيضا لأن البكري يميز تماما الاغريقية وهذا واضح من اقتباسه الموالي في نفس الكتاب عن طرابلس، ويستبعد كذلك أن يكون باللاتيني فما يقصده أهل الاندلس عادة باللسان العجمي هو اللغة اللاتينية التي كانت حية في الأندلس في ذلك العصر، كما أنه ليس بالبربري و القبطي كما ذكر البكري، وعليه لن يكون لسان أهل سرت هذا الا لهجة بونيقية فينيقية متأخرة و هي لسان الأفارق، ونحن نعرف بأن لغة هذه المدينة كانت البونيقية إلى غاية القرن الرابع ميلادي وذلك من خلال النقائش البونيقية المكتوبة بالخط اللاتيني التي اكتشفت فيها، وتتميز لغة هذه النقائش حسب ما ذكره الأستاذ الميار بكثرة الأخطاء النحوية والصرفية ونحن لا نراها مجرد أخطاء بل هي اللهجة التي يتكلم بها أهل ذلك القرن، فلو حاكمنا لهجاتنا العربية العامية المعاصرة إلى قواعد النحو والصرف لوجدناها تخرج عن أكثرها، وهذه

طبيعة اللغات واللهجات على مر العصور، وعلى كل حال يترجح لدينا أن مدينة سرت وحسب شهادة البكري كانت تتكلم اللغة البونيقية الفينيقية غير أنها كانت على لهجة تختلف كثيرا عن لهجة قرطاجة الاصلية ذلك أنها تأثرت بغيرها على مر العصور وتقادم الأزمان ،وذلك يفسر لنا السبب الذي دعا البكري الى وصفها بالرطانة ، ولو ظلت على حالها لقال كما قال الخليل الفراهيدي : وكنعان بن سام بن نوح ينسب إليه الكنعانيون وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية. وطبعا اللغة عند الاقدمين تحمل معنى اللهجة بالاصطلاح المعاصر فيقال لغة طيء لغة قريش لغة حمير.

و كان لسان جدالة هو ما يعرف اليوم بلغة إيدواسحاق في النيجر، وهو لسان يشبه ما كانت تسميه المصادر القديمة: شن سرت أو لشن سرت (أي لسان و لغة أهل سرت في شمال إفريقيا) الذي هو يقينا لسان الأفارق، ولسان هؤلاء هو بقية الفينيقية مع ظلال لغوية مختلفة، و هو الذي ذكره البكري (487 هـ) حين قال: و حول مدينة برقة قبائل من لواتة و من الأفارق (....) و لهم كلام يتراطنون به ليس بعربي و لا عجمي و لا قبطي و لا يعرفه غيرهم. لكن جدالة سيتعربون تدريجيا بسرعة قرابة القرن الثامن الهجري و تاليه، و سيتحكمون في ممالح الصحراء و ستنشأ فيهم نخبة من العلماء منهم من اتجه شرقا نحو المدن و صار وطنا في قبائل مسوفة، و بقيت كتلة جدالية هامة في تخوم (توات) إلى عهد قريب حيث ستبرز في هذه المنطقة نشاط لطائفة يهودية (15-16م) و دورهم في التحولات الاقتصادية هناك حيث تركزوا في منطقة هامة حيث ارتبط موقعها بطرق القوافل التجارية حيث احتكروا النشاطات التجارية والحرفية كصناعة الصابون والحلي الذهبية وغيرها، ولكن مع الحملة المغيلية على يهود توات التي انتهت إلى

إجلائهم عنها، اختفت الكثير من الصناعات والحرف وتأثرت اقتصاديات المنطقة تأثرا واضحا.

و قد تحدث البكري عن تاريخ الأفارقة (البونيقيين) ببلاد المغرب القديم و عن تأسيسهم قرطاج و بعض ملوكهم، حيث يقول: إن الذي بنى قرطاجنة ديدون الملك زمن داوود عليه السلام. وعليه يكون مؤسسها رجلا وتأسيسها في القرن الحادي عشر ق.م (لأن داوود كان بين سنتي (1055 – 1014 ق.م) وفي ابن خلدون - نقلا عن المؤرخ الروماني هروشيوش- يقول : إن بناءها كان على يد ديدن بن أليثا، وإنه من نسل عيصو بن إسحاق ومن المؤرخين من يقول أسسها الطبقة العليا من الفينيقيين.

كما يتحدث ابن خلدون عن حنبعل ملك الأفارق الذي كان يذكره المؤرخون بالمسلمون بلفظ أنبيل لأنهم نقلوا ذلك بلفظ الروايات الغربية التي كانوا يقتبسون منها و التي كانت تورد اللفظ بصيغة أنيبال (ANNIBAL)، فعن حنبعل ملك الأفارق يقول ابن خلدون : ثم ظاهر بعد ذلك أنبيل صاحب إفريقية ملوك السريانيين على حرب أهل رومة فهلك في حربهم مسموما. وبعد أن تخلص أهل رومة من تلك الحروب رجعوا إلى الأندلس فملكوها، ثم أجازوا البحر إلى قرطاجنة ففتحوها وقتلوا ملكها يومئذ أنبيل وخربوها لتسعمائة سنة من بنائها وسبعمائة لبناء رومة.

-الأجدار في العهد الإسلامي :

بعد تأسيس الأجدار لمملكتهم بتاهرت القديمة في القرن الرابع الميلادي ثم انضمامهم لمملكة ألطافا بقيادة الملك ماسونا و التي استمرت حتى الفتح الإسلامي، كانت لا تزال

قبيلة الأجدار مستقرة بتاهرت طوال هذه الفترة و استمرت بذلك حتى بعد الفتح الإسلامي و ذكرت مقترنة مع الأفارق الذين استقروا في تاهرت أنذاك فقيل عنهم أفارق بني أجدار، و قد كانت لهم علاقات وطيدة مع الحكام الإباضيين للدولة الرستمية كما أنهم أقروا لهم الولاء و انضموا لجيشهم و كان منهم قادة لجيوش بعض حكام بني رستم، و قد عاصروا العالم اللغوي يهوذا بن قريش التاهرتي الذي كتب عنهم: أجدار بني قطوبيم وهم قدماء من قوم الأفارق من بقية من فروا من أمام وجه ملك بني اسرائيل وقد حاربوا الروم فقتلوا منهم أربعين وسماهم العرب منانعة تقريبا لما يعنى به لفظ أجدار.

و قد كان يهوذا بن قريش حاخاما يهوديا ولد و عاش في مدينة تاهرت بالجزائر وغادرها نحو فاس في نهاية القرن التاسع الميلادي وبداية القرن العاشر، و قد كان إماما في اللغة العبرانية، و نبغ من عام 870م إلى 900م و عاش بجوار الأجدار بتاهرت قبل أن ينفيهم الفاطميون، فقد كان من بين أهم من وثق الوجود التاريخي لقبيلة الأجدار البونية التي استمرت بعد الفتح الإسلامي، بل و قد كان العالم الجداري امحمد بن ميمون البوني أكثر من قرأ ليهوذا بن قريش و استقى منه علوم اللسانيات، وكان يهوذا بن قريش قد كتب رسالته باللغة العربية ولكن بالحرف العبري، ويؤكد أن التشابه بين العربية والعبرانية والآرامية لم يكن نتيجة للصدفة، وإنما هناك عوامل رئيسية لخصها في عاملين اثنين هما قرب المجاورة في البلاد والمقاربة في النسب، و قال أن اللسان العبراني قد انتشرت فيه ألفاظ سريانية واختلطت به لغة عربية وتشذذت فيه حروف عجمية وبربرية ولا سيما العربية خاصة فإن فيها كثيرا من غريب ألفاظها قد وجده عبرانيا محضا .

و قد كان يهودا بن قريش ملما بعلوم التاريخ و اللسانيات فقد كتب كثيرا عن تاريخ و أصول قبيلة الأجدار التي جاورته في تاهرت و ذكرهم باسمهم الأصلي جدريم (Gadarim) و بني قطوبيم (Ben Katopim) و قال أن لسانهم أقرب ما يكون مما بين العربية و العبرانية مع أخلاط من بعض ألفاظ البربر إلا أنه تأثر كثيرا باللاتينية، و ذكر أنه كان لهم حرفهم الذي يكتبون به لسانهم و لكنه اندثر عندما غزاهم الروم فكتبوا كلامهم بالحرف الأعجمي (اللاتيني)، كما ذكر أن بعض رهبانهم أصبحوا يكتبون لسانهم بالخط العربي الغير منقط و يكتبون التعريف ألفا و لاما رغم أن التعريف عندهم شمسي مع كل الكلمات لأنهم ينطقون الألف في بداية الكلام لتعريفه ثم يقومون بتشديد ما بعده في مقابل العبرانية التي يكون التعريف فيها بالهاء.

وقد تعرض ابن حمو الغرناطي و امحمد بن ميمون البوني إلى قبائل الأجدار المنانعة بوصفهم، كما أطلقوا عليهم لفظ عرب الأفارق، ومدحوا خصالهم ونسبهم و معاملتهم للعلماء، و ميزوهم عن غيرهم من القبائل، و وصفوا طريقة عيشهم، و نجد أن القاضي الماحي بن سليمان كان قد ذكر النسب المشهور المتداول عن قبائل الأجدار و كيف أنهم أصبحوا ينسبون أنفسهم للأشراف الأدارسة و لكنه في نفس الوقت وضع مشاجر أنساب لهم تبين الاختلاف و التناقض في رواية انتسابهم للنسب الإدريسي، ثم ينتقل بعدها في باب آخر ليؤكد النسب الكنعاني البوني لقبائل الأجدار المنانعة حين تحدث عن المخطوطات التي في حوزة هاته القبائل و التي كان يحوز هو شخصيا عليها كونه كان قاضيا في العهد العثماني بعمالة وهران فهو بذلك كان يملك كل المخطوطات القديمة التي تخص القبائل، إضافة إلى ذكره ما كان منتشرا في زمنه من أخبار بين السكان المحليين

المتسبين للأجدار الذين كانوا يقولون بانتسابهم لقوم هربوا من فتنة حلت بالشام قبل حكم الرومان و قال بصريح العبارة أنهم من بني كنعان.

و بالتالي فإن معظم الساكنة لشمال إفريقيا من الأفارق البونيقيين تعربت بعد الفتح الإسلامي إلا بعض القبائل القليلة جدا و التي ذكرها بعض المؤرخين العرب كقبيلة الأجدار التي تفرعت منها فيما بعد عديد القبائل ممن يعرفون بالمنانعة أو بني الأربع و الأربعين شاشية و هؤلاء هم قبائل بونية كانت تدين بالأريسية ثم اعتنقت الإسلام و تعربت تدريجيا، ثم القبيلة التي سكنت سرت و التي ذكرها البكري بأنها كانت تتحدث البونيقية حتى القرن الحادي عشر ميلادي و قد استمرت حتى القرن الثالث عشر قبل أن يتعرب لسانها نهائيا و تهاجر بعض قبائلها نحو توات بتمنطيط.

-علاقة الأجدار بالأمراء الرستميين بتاهرت:

و عندما نتحدث عن فئات المجتمع الرستمي، فقد كان أغلبها من السكان الأصليين للمغرب، كما تواجد بتاهرت الكثير من الأجناس المختلفة الأخرى مثل العرب و الفرس و الأندلسيين والأوروبيين و الأفارق، بالإضافة إلى اليهود والنصارى، الذين كانوا يزاولون الأعمال الاقتصادية والعلمية والفنية، واستطاعت الروح السمحة التي تميز بها الإباضيون أن تكون نوعا من التضامن بين أفراد هذا المجتمع .

و قد كان الأجدار هم القبيلة الوحيدة من الأفارق التي كانت مستقرة بتاهرت في العهد الرستمي و هي حاضرة أجدادهم القديمة، و قد كانت لهم مكانة مميزة في المجتمع الرستمي و خصوصا عند الطبقة الإباضية الحاكمة و كانوا معروفين بتسمية بني أجدار،

و كانوا يجيدون اللغة اللاتينية إضافة إلى لغتهم البونيقية الأم، و قد نقل ابن الصغير عنهم أنهم كانوا من المسيحيين الأثرياء بتاهرت كما كان لهم حي خاص بتاهرت يعرف باسم الكنيسة أقيم على مكان مرتفع في المدينة، بنوا فيه منازل و قصور، و يبدو أن الأجدار بالدولة الرستمية كانوا مقربين من الأئمة الرستميين و كانت لهم مشاركتهم في الحياة السياسية للإمارة الإباضية فقد كانوا يعرفون بحماة البلد و بطانة الإمام بل و قد استعان بهم الحاكم الإباضي أبو حاتم في شورى البيت الرستمي، كما ذكر ابن الصغير أن هؤلاء الأفارقة من المسيحيين كانت لهم منزلة خاصة عند الإمام أبي بكر ابن أفلح الرستمي، و كان أحد هؤلاء الأجدار الأفارقة النصارى فارسا مشهورا يعتبر من حماة المدينة و يسمى بكر بن الواحد، و نستدل على التأثير القوي للطائفة الجدارية المسيحية في دولة بني رستم بما ذكره أندريه جوليان إذ يقول أن فن بني رستم قد تأثر في زخارفه بزخارف الأديرة القبطية المصرية، بل و حتى بسبب تداولهم الكبير للغة اللاتينية التي استمر تواجدها حتى القرن السادس الهجري و رغم حلول العربية محلها في إدارة أغلب الكيانات السياسية الجديدة، لكن تأثيرهم على المجتمع الرستمي كان كبيرا كما هو ملاحظ في نهاية القرن الثاني الهجري بتاهرت ، نجد ذلك التأثير مثلا حين حلف عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم في إحدى المناسبات (بالله) بالعربية و (أبيكش) بالبربرية و (بر ديو per deus) باللاتينية و التي كان يسميها السكان بالحضرية، و في حروب أبي حاتم مع العدوان ضد الدولة الرستمية خرج و معه وجوه من البلد من الأجدار الأفارقة و غيرهم نحو مائة رجل و كان الخارجون معه حماة البلد منهم بكر بن الواحد قائد الأجدار و كان يعرف بفارس بلاد المغرب، و قد ادعى بكر بن الواحد أن له خمارا كان قد ورثه من أجداده الشهداء الأربع و الأربعين و أن هذا الخمار كان ملكا

لأحد ملوك الأفارق القدماء و كان كل من يضعه غطاءا على رأسه يكون له حرسا و حاميا من كل ضرر، و لعله يقصد بالخمار الحارس هنا الزعيمف (Zaimph) الذي كان بالفعل خمارا مقدسا عند ملوك قرطاج و هو خمار مزين بجواهر يعتقد أن الآلهة تانيت كانت تتشح به في قدس أقداس معبدها و هذا الخمار هو حارس المدينة و هو مذكور في رواية صلامبو ابنة حملقار برقة القرطاجي، و يزعم بكر بن الواحد أنه قد خبأ الخمار في سرداب بجبل أجدال و كفل أحد ملوك الجن لحراسته من أن تقربه يد إنس أو جان حتى إلى حين، وقد أسلم بكر بن الواحد و أسلم معه الأجدار و تبنوا المذهب الإباضي و خاضوا مع الإمام أبي بكر معاركه الأولى مع العرب والجند وهوارة من البربر و خاضوا كذلك معارك الرستميين مع الفاطميين، وعندما تولى عبيد الله حكم الفاطميين ، قام بالزحف نحو تاهرت فسقطت تحت يده رغم مقاومات الجيش الرستمي الكبيرة، و قد كان الأجدار من بين هذا الجيش فأغار عليهم الفاطميون فحاولوا مقاومتهم بكل ما استطاعوا لكن كثرة جيوش الفاطميين أحالت دون مقاومتهم فاستشهد من الأجدار عدد كبير ولم يبقى منهم إلا نفر قليل فنفاهم الفاطميون من تاهرت إلى الصحراء فرحلوا نحوها و قد استقروا في منطقة يقال لها وادغير و يعتقد أنها بالمغرب الأقصى.

-وقعة الأربعين جداريا مع أبي العافية :

بعدما تم نفي الأجدار عن موطنهم الأصلي بتاهرت من طرف الفاطميين، ذهبوا ليستقروا في أقاصي الصحراء بمنطقة وادغير حيث استقبلهم أحد المشايخ الأدارسة و أسكنهم الخيام هم و جميع أهاليهم، و يذكر أنه في نفس فترة استقرار الأجدار بصحراء الوادغير، ولد مسعود السرحاني و هو من أحفاد ميمون الجداري أحد أعيان الرستميين

من بني عمومة بكر بن الواحد فارس جيش ابن الأفلح، و يذكر أن مسعود كان يدعى بالودغيري نسبة للمنطقة التي ترعرع بها، و قد تزامن تواجدهم بهذه المنطقة مع فترة اضطهاد الأشراف الأدارسة من طرف موسى بن أبي العافية و بهذا برر الشيخ الإدريسي لهم تواجده بقفار الصحراء لينجو بنفسه و أهله و تكون له خلوة لروحانياته و لم يخبر بنسبه أحدا غير الأجدار الذين وثق بهم، و هو الذي بعث مسعود إلى فاس لطلب العلم عند أحد معارفه شرط أن لا يخبر أحدا هناك أنه قد بعث من عند أحد الأدارسة و إلا قتلوه، فارتحل مسعود إلى هناك و حفظ القرآن و الحديث و درس علوم الشريعة و حصل على إجازات بها ثم عاد إلى قومه و أخبرهم بما رآه في مدينة فاس و وصفها بأنها حاضرة المغرب و موضع العلم منه و أنها في غاية الحضارة و أهلها في غاية الكيس و لغتهم أفصح اللغات و قال: ما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب فهي بحق تجعلني أستذكر ما حكاه لي والدي عن مدينة تاهرت موطن أجدادنا. فغلبت عاطفة الحنين إلى الموطن عند الأجدار و عزموا الرحيل إليها كونهم ألفوا حياة التمدن لا البداوة فرافقهم الشيخ الإدريسي على أن لا يخبروا أحدا عنه فوعدوه، ثم شدوا الرحال نحو فاس و عندما بلغوا مشارف المدينة استوقفهم أحد عمال جيش موسى بن أبي العافية المكناسي الذي كان يكره الأدارسة بدوره أيضا و قد كان يعرف الشيخ الإدريسي فلما رآه قبضه هو و من معه من رجال الأجدار و قد تمكن نساؤهم و أطفالهم من الهرب بتيسير من الله، و قد كان الأجدار أربعين رجلا حسب الرواية، فلما عرفوا ما سوف يحل بالشيخ ادعوا انتسابهم للأدارسة هم أيضا لكن الشيخ أقسم أنهم كانوا فقط من مريديه ليخلصهم، فلما أيقن العامل العسكري بصدق ما قاله الشيخ نزع عمامته و سحبه نحوه فقطع رأسه، ثم أخذ رجال الأجدار و جعل يضع على أجسادهم و أرجلهم

الشوك ليعذبهم، يقول ابن حمو الغرناطي: الأجدار بنو الأربعينين، توسل أربعون منهم لله بحق الأربعين شهيدا ممن ماتوا من أجدادهم فكانوا من الأحياء. فقد دعى الأجدار الله بحق أجدادهم الأربع و الأربعين الذين كانوا يقدسونهم و يعتبرون التوسل بحقهم حرزا و حرسا لهم، و قد استجاب الله لدعائهم بمعجزة و سرحهم بفضله و دلهم بوحي منه على موضع أهليهم فأخذوهم و فروا بعيدا إلى منطقة واد زاع ونزلوا بين أهل المنطقة فحكوا لهم الوقعة فآزرهم أهلها و أسكنوهم في مساكنهم، و أسموا جبلا عظيما عندهم على اسم الأربعين جداريا ممن حماهم الله، و اعتبروا وجودهم بينهم كرامة من الكرامات و حرزا لبلدهم، و قد كانوا يرسلون أبناءهم ليتتلمذوا على يد سيدي مسعود ليعلمهم القرآن، لكن الأجدار لم يهدأ لهم بال حتى يأخذوا بثأرهم و ثأر شيخهم الإدريسي، فمن الله عليهم بحفظه و تمكنوا في إحدى الليالي من النزول إلى معسكر العامل الظالم لأبي العافية و قد أعمى الله بصيرة جنوده من رؤية رجال الأجدار فدخلوا عليه في خيمته وقتلوه كما تعدى عليهم ظلما وجورا، ثم ذهبوا و هم يجدون السير حتى وصلوا واد القصب حيث أرسل إليهم أحد رجال واد زاع الذي وعدهم بأنه سوف يتكفل بترحيلهم إلى الأندلس، هنالك افترق عنهم مسعود و ولده احساين و ابنتاه لينتقلوا إلى جبل بني اسنوس بتلمسان الذي نزلوا فيه عند رجل هناك يدعى شعيب بن عبد الحليم و استقروا عنده و خلفوا ذريتهم و يقال لهم أولاد احساين في قبيلة بني هديل، بينما ارتحل ميمون إلى بونة و خلف ابنه العالم الجداري امحمد بن ميمون البوني، بينما تمكن من بقي من الأجدار من الفرار نحو بلاد الأندلس ليستقروا هناك فترة من الزمن.

و قد ظهر أمر دولة الطاغية موسى بن أبي العافية المكناسي الزناتي البربري في أواخر الدولة الإدريسية في ناحيتي ملوية وتازة، و هو الذي أسس إمارة زناتية أطاح بها حكم دولة الأدارسة بالمغرب، فاستمرت دولته نحو نصف قرن أي من 306هـ/ 918م إلى 336 هـ/ 973م. ثم إن الطاغية موسى بن أبي العافية المذكور سعى في تبديد شمل الأدارسة الأشراف وقطع دابرهم، ففرق شملهم، ففروا من عاصمة ملكهم فاس وتفرقوا على البراري والقفار كجبل العلم وجبل زواوة وفجيج وعدوة الأندلس وسجلماسة وجبال غمارة وجبال تادلة والسوس الأقصى ودكالة وتامسنا وأوطاط ووادي عزة والساقية الحمراء حتى قيل أنه فر منهم يومها من فاس 700 رحيل.

قال النسابة القاضي حشلاف الجزائري عن بطش الطاغية أبي العافية بالأدارسة ما صورته: فلما تسلط عليهم الظالم ابن أبي العافية قبحه الله تفرقوا وهجروا فاس موطن سلفهم وتغيرت أنسابهم وبدلوا ألقابهم خوفا على أنفسهم وحريمهم، فضاع نسبهم، فصار الشخص للبلد التي يسكن بها وهذا هو السبب الأقوى في تغيير الأنساب، فأصبحت نسبة الشخص للبلد التي يسكنها دون نسبته إلى أصله وقبيلته...

ولم يقتصر ظالم ابن أبي العافية عند ذلك الحد فقد كان جائزا خرب البلاد ونهب الأموال وحمل السيف على الشرفاء أينما وجدوا، وقتل منهم بوادي الشرفاء خلقا كثيرا، كما روي أنه قطع تسعين رأسا بمدن أخرى، مما اضطر من بقي منهم للهرب إلى قمم الجبال والصحاري للنجاة بحياتهم من القتل إذ يقدر المؤرخون أعدادهم بحوالي السبعمائة رجل، بعد أن عزم على استئصالهم من البلاد، فكانت حجر النسر إحدى النقاط التي شكلت مركزا لتجمعهم ولم تكن كل تلك البشاعة والقسوة التي عامل بها

ابن أبي العافية المكناسي آل البيت العلوي كافية لشفاء حقده وغله، بل لحق بهم إلى حجر النسر وضرب الحصار حولهم بغية قطع دابرهم من جميع البلاد خوفا من عودتهم مرة أخرى ومطالبتهم بالملك الذي هو حقهم فهو ملك أجدادهم الأدارسة، لا سيما بعد أن لاحظ حب الناس وتمسكهم وانصياعهم لهم في جميع أمور دينهم ودنياهم، يقول ابن أبي زرع: وساروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر مقهورين مغلوبين فانحصروا بها... فنزل عليهم ابن أبي العافية واشتد عليهم الحصار، وأراد قطع دابرهم، فعدله على ذلك رؤساء المغرب وأكابر أهل دولته وقالوا له: أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له. فاضطر إلى الانسحاب نحو مدينة فاس وخلف عليهم أبا الفتح التسولي مع ألف فارس لمنعهم من التصرف، ودام حبسهم داخل القلعة لمدة أربع سنين أدت هذه المحنة القاسية إلى تشتيت آل البيت العلوي وهجر ديارهم وترك أموالهم وموارد عيشهم، هذا فضلا عن إنكارهم لنسبهم في سبيل المحافظة على أنفسهم وعيالهم.

-الأجدار في الأندلس :

إن حياة الأجدار في الأندلس تبقى ضئيلة، وربما يعود شح المعلومات التاريخية إلى طبيعة الأجدار الانعزالية، فقد كانوا يلجؤون إلى العيش والإقامة في تجمعات أو أحياء خاصة بهم، على الرغم من قيام بعضهم بالسكن بين المسلمين في أحيائهم.

إن احتفاظ الأجدار ببعض آثار المذهب الأريودوناتي في الأندلس وما يمليه ذلك من تشبث بالصلوات والصدقات وباقي الطقوس والعبادات التي دخلت في ممارساتهم الطرقية الصوفية الإسلامية، يعبر عن تميزهم عن باقي المكونات الأخرى. وقد مكنهم

ذلك من البقاء كتلة متماسكة قائمة بذاتها، على الرغم من الاندماج الحاصل مع باقي المسلمين وخاصة في اللغة والتجارة ومناحي حياتية أخرى، كما انصب اهتمام الأجدار على التعمق في دراسة علوم العرب وآدابهم وأشعارهم، حتى أصبح الواحد منهم لا يقرأ اللاتينية أو يلقي بالا إلى الكتب المقدسة المكتوبة بها، ويرجع ذلك إلى انشغالهم الكبير باللغة العربية ودراستها، ومحاولة التمكن منها.

و قد ظهر ابن حمو الغرناطي الجداري كأبرز علماء الأجدار في الأندلس، فقد كان عالما في اللسانيات و كان له بعض المؤلفات التي تدرس اللسان البوني القديم كما أعاد كتابة تاريخ أجدار بني قطوبيم، و كان من بين قلائل المؤرخين المسلمين الذين تحدثوا عن الدوناتيين ببلاد المغرب القديم في العهد الروماني فقد ذكرهم بوصف (أتباع ابن دوناس النقريني) و قال أنهم و الأريسيون ملة واحدة و حسب ذكره فقد كان الثوار الدوارون من بني قطوبيم و شهداؤهم من أتباع الدوناسيين، كما يجدر بالذكر أن اسم دوناس استمر تداوله حتى بعد الفتح الإسلامي فمن سلاطين دولة مغراوة كان هنالك حاكم يدعى بالفتوح ابن دوناس، و قد وثق ابن حمو الغرناطي أحداث وقعة الشهداء الأجدار الأربع و الأربعين على يد الرومان ثم تأسيس مملكتهم بتاهرت القديمة إلى أن تطرق إلى ولاء الأجدار للرستميين و وقعتهم مع موسى بن أبي العافية حتى فرارهم إلى الأندلس، و هاجر في آخر سنين حياته مع أهله إلى مالطا ليموت و يدفن فيها، لذلك يلقبه بعض الرواة بابن حمو الغرناطي المالطي، كما هاجر بعض الأجدار الآخرين نحو صقلية لكن غالبيتهم فضلوا الإقامة بغرناطة، و قد اهتم الأجدار كثيرا بترجمة الكتب المؤلفة باللغة اللاتينية بحكم إتقانهم لها، ويؤكد ذلك وجود نسخة عربية من مخطوطة إنجيلية تدعى

إنجيل برنابا كتبها الأجدار باللاتينية ثم بالعربية و أعاد الموريسيكيون نسخها و نشرها و هو الإنجيل الذي يبشر بمجيء النبي محمد كخاتم للأنبياء و هي النسخة التي يؤمن بصدقها العديد من الفرق الإسلامية، و في هذا الصدد نشير إلى أن بعض الأجدار قاموا بنقل الأعمال اللاتينية إلى العربية سواء كان ذلك في الأندلس أو في صقلية، من ذلك مختصر في علم الفلك تمت ترجمته إلى العربية من طرف ابن حمو الغرناطي الجداري.

و قد احتك الأجدار بنصارى الأندلس ممن يسمون بالمستعربين، مما كان له الأثر الكبير في انفتاحهم على الثقافة والتأريخ الغربي القديم، لأن النصارى في العهد الإسلامي حافظوا على بعض من تراثهم القديم، فمؤلفات القديس أوغسطين كان يتم تداولها بشكل كبير وعليها كان الاعتماد من بعض العلماء الجداريين كابن حمو الغرناطي الجداري الذي اعتمد على كتبهم القديمة بشكل أساسي في إعادة تدوين تاريخ الأجدار و لسانهم البوني القديم، ويحدثنا الإمام القرطبي عن مكانة أوغسطين عند نصارى الأندلس بقوله: إن النصارى معولون على معرفته، ومقلدون له في قومته وقعدته، على أنه أعرف بمسالك النظر وأجرأهم على مناهج العبر.

و قد بدأت تظهر تسمية (مستعربين) في النصوص والكتابات الرسمية من خلال وثائق العقود الجارية بين الناس، ثم في كتابات نصارى الأندلس سواء باللاتينية أو الإسبانية القديمة (عجمية الأندلس)، وبالنسبة لمصطلح مستعربين (Mozarabes)، فقد أطلق على الإسبان النصارى الذين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية، واحتفظوا بديانتهم، ولكنهم استعربوا ثقافيا، ذلك أن إطلاق هذا المصطلح جاء بعد شيوع استعمال هذه

الفئة للغة العربية وتجذر الثقافة والتقاليد العربية بين أبناء المجموعة النصرانية، بدليل أن إطلاق هذه التسمية كان في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

وتحدث أرسلان عن طليطلة فذكر أنها بقيت في أيدي العرب لأربعة قرون، وغلبت العروبة على أهلها من النصارى فلبثوا على دينهم، ولكنهم اتخذوا اللغة والثقافة العربية لأنفسهم، وكانوا يقيمون صلواتهم وطقوسهم الكنسية باللغتين العربية والقوطية. لم يتوقف أمر النصارى على تعلم اللغة العربية وحدها، بل إن الكثير من العادات والتقاليد العربية قد تسربت إلى نفوسهم، وكانوا ينظمون أكلاتهم وفق العادات الإسلامية، من ذلك أنهم امتنعوا عن أكل لحم الخنزير، واتبعوا بصرامة عادات أخرى غريبة تماما على المسيحية كنزع الصور من داخل الكنائس بسبب التأثير الإسلامي.

و قد برز النورمان على المسرح العسكري في القرن الحادي عشر، فقد انتصر زعيمهم وليام الفاتح في معركة هيستنجز في 14 أكتوبر 1066م على الملك هارولد الثاني آخر ملوك السكسون والدانماركيين في بريطانيا العظمى بفضل استعمال جنوده الجيد للنبال وبمساعدة السكان الأصليين البريطانيين، وخسر النورمان بعد خمس سنوات معركة ملاذكرد عندما انضموا إلى الجيش البيزنطي في حربه مع الأتراك السلاجقة بقيادة ألب أرسلان، واستولى النورمان على مساحات من فرنسا ثم شرعوا بالتوغل في إيطاليا وساهموا في حرب العرب في الأندلس. بدأ روبرت جسكار (Guis Card) نشاطا عسكريا واسعا في إيطاليا ما بين 1049م و1054م وتدخلت بيزنطة محاولة استعادة نفوذها القديم في إيطاليا وصقلية فأرسلت أرجيروس على رأس حملة إلى باري عام 1051م. وتحالف البابا مع أرجيروس ضد النورمان، ولكن النورمان انتصروا عليهما

وأسروا البابا ليو التاسع (1049-1054م). ومات القائد البيزنطي ارجيروس فاحتل النورمان باري واجتاحوا روما .

وانصرف النورمان لحرب العرب و المسلمين في صقلية، وكانت إمارة الكلبيين فيها تتهاوى بعد قرن من تأسيسها على يد الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي اليمني بموافقة الخليفة الفاطمي الثالث المنصور وقام ابن الحواس علي بن نعمة بعزل آخر الأمراء الكلبيين حسن الصمصام عام 1052م وتقاسم حكم صقلية مع قادة آخرين، ونافسه زوج أخته ابن التمنة الذي استعان بالنورمان الذين هزموا ابن الحواس وقتلوه، وحاول أمير تونس المعز بن باديس إنجاد عرب صقلية ولكن هياج البحر حطم الأسطول وقام روجر ابن تانكرد باحتلال مسينا 1060م وبالرمو 1071م وسراقوسا 1085م ومالطة 1090م فأتم بذلك القضاء على الدولة العربية الإسلامية في صقلية ومالطة ليقيم دولة النورمان.

وتطورت أحوال الأجدار و المسلمين في صقلية و مالطا بشكل عام من سيء إلى أسوأ فتتردى أحيانا ثم يعاملون بشيء من العدالة، وراودهم ملوك صقلية خوفا من تعاونهم مع الدولة الناشئة الموحدية في الشمال الإفريقي، وساءت أحوال الأجدار في تلك البلاد أحيانا فقاربت العبودية مما دفعهم إلى الهجرة نحو المغرب الأوسط فاستقروا بالمدية ثم ذهب بعضهم إلى جبل أوراس و قسنطينة و كان منهم بورك بن علي، ومع أنه غادر بلده صقلية وهو بعد في مقتبل العمر قاصدا بلاد المغرب الأوسط موطن مملكة أجداده فإنه لم ينس صقلية، وقد بقيت مالطة عربية حوالي قرنين وربع (869م-1090م). ويختم

الحديث عن صقلية العربية مع أن الوجود العربي المأساوي استمر بها قرنا ونصف القرن بعد ذلك، أي قرابة ثلث الوجود العربي فيها .

-قبائل الأجدار البونية و توزعهم:

وعندما ورثت الدولة الزيانية حكم المغرب الأوسط بعد سقوط الدولة الموحدية، و التسهيلات التي أقرها الحاكم الزياني يغمراسن بن زيان للمهاجرين الأندلسيين للاستقرار ببلاد المغرب الأوسط، وجد الأجدار أنفسهم أمام فرصة لا تعوض للعودة إلى أرض أجدادهم، فقام من بقي من الأجدار بغرناطة و شدوا الرحال إلى بلاد المغرب الأوسط وعاشوا في كنفها يمارسون أشغالهم ويتابعون حياتهم اليومية، و قد استقروا في بلاد مغراوة، وكانت دولة بني عبد الواد الزيانية من أبرز الدول التي استقبلت جموع المهجرين المسلمين و اليهود من الأندلس في حملات متتابعة نفذها المسيحيون الذين استولوا على الأندلس وقضوا على آخر معاقل الإسلام فيها. وهنا بدأت مرحلة جديدة من مراحل حياة أجدار بني قطوبيم المنانعة في المغرب الأوسط و قد سكنوا في بلاد مغراوة بعدما تمكن منهم الحاكم الزياني يغمراسن بن زيان.

و قد دخل الأجدار أرض مغراوة من ميناء في ناحية خليج أرزيو قرب مستغانم، و قد استقروا بالساحل البحري سبعة أيام لسبب غير معلوم و هم يقيمون به تعبدهم و خلوتهم حتى رآهم بعض أهل مغراوة فاستقبلوهم و رحبوا بهم، و أصبح ذلك الموضع من الساحل البحري يطلق عليه حتى يومنا هذا تسمية بحر أربعين شاشية نسبة لهم، و قد كان لهذا الموضع البحري دلالة رمزية تاريخية عميقة لدى الأجدار فقد كان يحوي ميناء بورتوس ماغنوس(Portus Magnus) الذي عرف التواجد البونيقي، فقد عثر فيه

على قطع نقدية قرطاجية و أكثر من خمس وثلاثين قبرا للفترة البونية، إضافة إلى اثني عشر نصبا جنائزيا تحمل بعضها نقوشا باللغة البونية الحديثة و عليها رمز الإلهة تانيت، وتكمن أهميتها في كونها دلالة تاريخية على أن اللغة البونية كانت معروفة لدى سكان المنطقة.

و قد حط الأجدار الرحال بين أهالي قبيلة مغراوة على ذمة الحاكم يغمراسن بن زيان، و قد رحبت بهم جموع الناس و آوتهم، فأقاموا بها و تصاهروا مع القبائل المجاورة، و قد كان أفراد القبيلة الجدارية يعيشون من الزراعة و تربية المواشي و الخيول، و قد انخرطوا مع مغراوة في أحلافهم و حروبهم كما كانوا يحملون معهم راياتهم الصفر أينما حلوا، و قد أسكنتهم مغراوة في موضع أسمته بالشواشي نسبة لهم أي للأجدار، و به غابة تعرف بخلوة الشواشي التي لا زال أهل المنطقة يذكرون التراث الشفوي عنها بأن بني الأربعين صالحا كانوا يختلون بها للعبادة و هي نفسها المنطقة التي استقر بها سيدي عفيف مع ذريته و الذي يعود نسبه للأجدار و هي تقع حاليا بمنطقة سيدي علي بمستغانم، و قد كانت مغراوة أكثر أهل المغرب تأثرا بالهجرات الأجنبية لاسيما الضاربين منهم على ساحل البحر المتوسط، نتيجة احتكاكهم المستمر بالطارئين الجدد على المنطقة، فلا غرابة إذا أن تظهر بينهم محاولات تكوين كيانات سياسية قومية قبل الزيانيين الضاربين في أعماق الصحراء. و قد دخل الأجدار في حلف مغراوة، وهم من أكثر من حالف قبائلهم علما وأشدهم بأسا وأقواهم شكيمة وأعظمهم استقرارا وتمرسا على أساليب الحضارة.

و يمتد موطن مغراوة من تلمسان غربا إلى الشلف شرقا، وظهرت منها إمارة بني خزر، ثم إمارة زيري بن عطية وأولاده في القرن الرابع الهجري أي العاشر الميلادي، وقد ظلت هذه القبيلة تتميز بالطابع البدوي الريفي، وقلة النفوذ والقوة، مما جعلها تتعرض لضربات بني عبد الواد، هذا وكانت قبيلة مغراوة كبني عبد الواد على الدعوة الموحدية حتى وطئ أرضها أبو زكرياء الحفصي عام 632هـ/ 1236م، فبايعته في ذلك مخالفة سياسة بني عبد الواد، وهو السبب الذي دفع بالسلطان يغمراسن إلى مواجهتها والتوغل داخل أراضيها، ولما عجزت عن مقاومته استنجدت بأبي زكريا الحفصي الذي توجه بحملة عسكرية نحو تلمسان واستطاع احتلالها عام 640هـ، وكلف أبو زكرياء العباس بن منديل برئاسة مغراوة ومنحه الإستقلال الداخلي حيث اتخذ هذا الأخير الآلة وشارة الملك، غير أن هذا الإنتصار الذي حققته مغراوة بمساعدة أبي زكرياء الحفصي لم يثبط من عزيمة يغمراسن الحقيقية خاصة بعد أن عظم ملكه واستفحل سلطانه وبدأ يطمح للاستيلاء على كامل أمصار المغرب الأوسط، إذ استطاع سنة 668هـ/ 1270م احتلال عاصمة مغراوة مليانة، بعد أن تنازل عليها أميرها عمر بن منديل لصالح يغمراسن على شرط المؤازرة على إخوته، فصار الكثير من مغراوة إلى ولايته.

و قد كان المجتمع الزياني يتألف من البربر، ومما نزل بها من العرب الفاتحين وممن استقروا بها من القادمين إليها بعد كل فتح من الفتوحات التي قامت بها الدول التي توالت على هذا القطر من عهد الأدارسة إلى عهد بني عبد الواد، وقد ازدهرت تلمسان وضواحيها حينذاك بالوافدين عليها من مهاجري الأندلس، ومعظمهم من مهرة الصناع والمزارعين والعلماء، فأخذ كل واحد من هؤلاء يمارس صنعته في وطنه الجديد، وقد كان

لهجرة الأندلسيين أثر كبير على المجتمع الزياني في القرن التاسع من جميع النواحي فالتأثير الثقافي بدا واضحا حيث احتكر هؤلاء ميدان التعليم في المغرب الإسلامي ولاسيما الحواضر فقد استعملوا أساليبهم الخاصة بهم، فإلى جانب تعليم حفظ القرآن أضافوا القواعد العامة بمختلف العلوم، كما علموا روايات القرآن وأنواع قراءاته، و نشروا خطهم حتى ساد في المغرب الإسلامي، إذ انتشر التعليم في شتى مدنها ومعظم قراها، وكان ينقسم إلى قسمين: قسم يزاول بالمساجد، وقسم بالمدارس، وكانت كل المساجد في القرى والمداشر والمدن حيث كان حفظ القرآن والحديث مادة أولى أساسية، ثم يدرس النحو واللغة والفقه والأدب أما المساجد الجامعة فإنها شبه كليات تدرس بها العلوم الإسلامية كالفقه وأصوله والحديث ومصطلحه والقرآن وتفسيره، واللغة والنحو والأدب على غرار ما كان يجري به العمل بجامع القرويين بحاضرة فاس أما المدارس فإنها تقترب من الجوامع في المنحى والأسلوب وتزيد عليها بتدريس العلوم العقلية.

إن الخلاف بين بني عبد الحق المرينيين وبني عبد الواد الزيانيين قديم، ناشئ عن التنافس الشديد بينهما حول بسط نفوذهما على أكبر مساحة من المغرب باعتبار أحقية كل واحدة منهما في وراثة الموحدين، إضافة إلى الجوار في الملك والمنافسة في الاستقلال برئاسة زناتة. مما حول هذه المنافسة إلى صراع سياسي وعسكري دام سنين طويلة، غنته تلك الضغائن والرغبة اللامتناهية في تحقيق الريادة وبسط النفوذ، إذ لم تكن دولة بني مرين الناشئة لترضى بمجاورة بني عبد الواد المنافسين لها وذلك بعدما تيقنت من المكانة الرفيعة التي يتبوؤها هذا القبيل في ميدان السياسة والحرب، فنشأ عن ذلك حقد وعداوة كان مبعثها المنافسة على رئاسة زناتة والسلطان المطلق على المغرب الأوسط.

وبعد وفاة يغمراسن سنة 681هـ/ 1283م تمت مبايعة ابنه أبو سعيد عثمان الذي أوصاه والده من قبل بمسالمة بني مرين ليتفرغ فيما بعد إلى فتح ما ولاه شرقا من بلاد الحفصيين، ففعل عندما بعث بأخيه محمد إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني الذي كان بالأندلس سنة 684هـ/ 1285م فهادنه وسالمه، فتوجه حينئذ إلى الجهة الشرقية فصادف ذلك حدوث فتن خطيرة بإفريقية ذلك أن الأمير أبو زكرياء بن أبي إسحاق الحفصي صهر أبي سعيد عثمان بن يغمراسن كان قد زحف بمساعدة العرب الذواودة إلى بجاية التي استنجد سلطانها أبي حفص بأبي سعيد عثمان.

و أما الحاكم الزياني أبو حمو موسى الأول (708هـ/ 1308م – 718هـ/ 1318م) فإنه لم ينس ما قاسته تلمسان أيام الحصار، لذلك فبعد أن تولى الحكم بعد وفاة أخيه أبي زيان افتتح عهده بإبرام الصلح وتحقيق السلم مع أمراء بني مرين تأمينا لظهره، حيث أوفد كبار وزرائه إلى السلطان أبي ثابت فأمضوا معه صلحا، و كان قد ذهب برفقتهم أعيان من قبيلة الأجدار الذين كانوا في حلف مغراوة، مما مكنهم من إقامة علاقات وطيدة مع بعض أصحاب النفوذ و عمال الدولة المرينية لأنهم أرادوا بذلك الاستثمار السياسي وتوفير غطاء لطموحاتهم في سيادة المغراويين و سعوا إلى تعضيد طموحهم للحكم عبر مبايعة الأشراف لهم، حتى تمكنوا في عهد السلطان أبي الحسن المريني من ضبط أنسابهم و الانتساب إلى الأشراف الأدارسة بالوثائق و المستندات و تفرقوا بعد ذلك من أرض مغراوة إلى باقي أقطار البلاد الغربية .

و قد أعيد للأشراف اعتبارهم و نفوذهم من قبل المرينيين، فقد كانت أولى عمليات الإحصاء للأشراف قد أجريت في عهد السلطان أبي الحسن المريني، حيث شملت مختلف

فروع الشرفاء بالمغرب، فقد دأب السلاطين المرينيون منذ وقت مبكر على الاهتمام بالشرفاء الأدارسة في إطار البحث عن المشروعية لحكمهم الذي أصبح مهددا بظهور دعاة المهدوية مع بداية تأسيس الدولة المرينية فكانت تعطى الإعانات و الهبات لهؤلاء الشرفاء مع الإعفاء من الجبايات و الضرائب.

ويمكن الوقوف عند العديد من المظاهر التي تبرز المكانة الاجتماعية التي أضحى الأجدار يحضون بها في المناطق التي نزلوا بها، حيث نعتوا في بعضها بعبارات التبجيل والتقدير من قبيل (الشرفاء الأجدار الأجلاء)، أو (الشرفاء الأجدار المنانعة)، أو الشرفاء الأجدار بنو السادة الأربعين الأخيار ، و لقد حظيت الأسر الشريفة من قبل السلطة بامتيازات مادية عينية ونقدية واسعة شهرية وسنوية، غالبا ما كانت تمنح لهم بمناسبة عيد المولد، واقطاعات ممنوحة على شكل هبات وأعطيات تتوارث بواسطة الظهائر، وكان بعضها معفيا من الضرائب، طالما أن إمكانيات الدولة تسمح بذلك، و قد عمدت السلطة على عهدي أبي الربيع وأبي الحسن، بعد أن كثر أدعياء الشرف للحصول على مكانة اجتماعية مرموقة، وما يتبعها من امتيازات مادية ورمزية أثقلت كاهل ميزانية بيت المال، إلى إجراء عملية إحصاء الشرفاء، وتمييز الأصيلين منهم عن غيرهم.

و عندما نتطرق إلى تواجد الأجدار كقبيلة في بلاد المغرب الأوسط فإننا نتحدث عن بنية اجتماعية متكاملة تتطور خصائصها البشرية و الجغرافية و تتنوع لتنتج عنها بطون تصبح مع مرور الوقت قبائل قائمة بذاتها تعود بفروعها إلى جذر قبيلتها الأم، فالقبيلة هي ظاهرة عامة شملت شتى ربوع العالم منها ما زال واندثر كالقبائل الجرمانية بأوروبا، ومنها ما انحسر وجودها وضعفت شوكتها كالهنود الحمر بأمريكا، ومنها ما بقي إلى يومنا

هذا على غرار الإسكيمو، الأزاندي، النوير... و عندما نتحدث عن حصانة البلاد حيث يرتحل الأجدار، فيمكن أن نقول أنها البلاد التي يغلب عليها الطابع الجبلي، وتضم أراضيها أعظم الكتل الجبلية بالمغرب الأوسط فيما يسمونه بالمنائع (المانعات)، مما ولد أنفة لدى أهلها وشجعهم على التمسك بعاداتهم وتقاليدهم، على كثرة الفتن والصراعات التي طغت على المنطقة.

وأمام الغموض الكبير الذي يكتنف المصادر التاريخية حول معالم البناء القبلي بالمغرب الإسلامي.عموما فإننا نجد أنفسنا مجبرين على الإستعانة بما جاء في كتب الأنساب والطبقات، لا سيما أن كثيرا من النسابة يرجعون أنساب هذه القبائل إلى أصول عربية أو أصول نبوية شريفة.

-التنظيم القبلي لقبائل الأجدار:

و مع نهاية القرن الرابع عشر بدأت فروع الأجدار بمغراوة تنزح نحو المناطق المجاورة لتشكل بذلك ملامح القبائل الجدارية الحديثة، فقد استقرت في مناطق مختلفة في الغرب الجزائري و الشرق المغربي و المتمثلة في تاهرت و تلمسان و وجدة و غيرها من المناطق و يمكن أن نحصرهم في مجموعة من السادة الأولياء الأجدار و هم: سيدي عفيف المغراوي، سيدي ميمون، سيدي عبد الوهاب، سيدي منصور الكبريت، سيدي يوب، سيدي مسعود، سيدي عبد الله بن منصور و آخرون و هؤلاء معروفون بتسمية الأجدار المنانعة الغرابة و هم الذين نزل أجدادهم بمغراوة بعد عودتهم من الأندلس، فنجد أن سيدي عفيف فضل الإقامة بموطن آبائه بمغراوة و كان معروفا بتواجده الدائم بخلوة الشواشي و بتلك الأرض استقرت ذريته بعده، أما سيدي ميمون فقد استقر بمنطقة

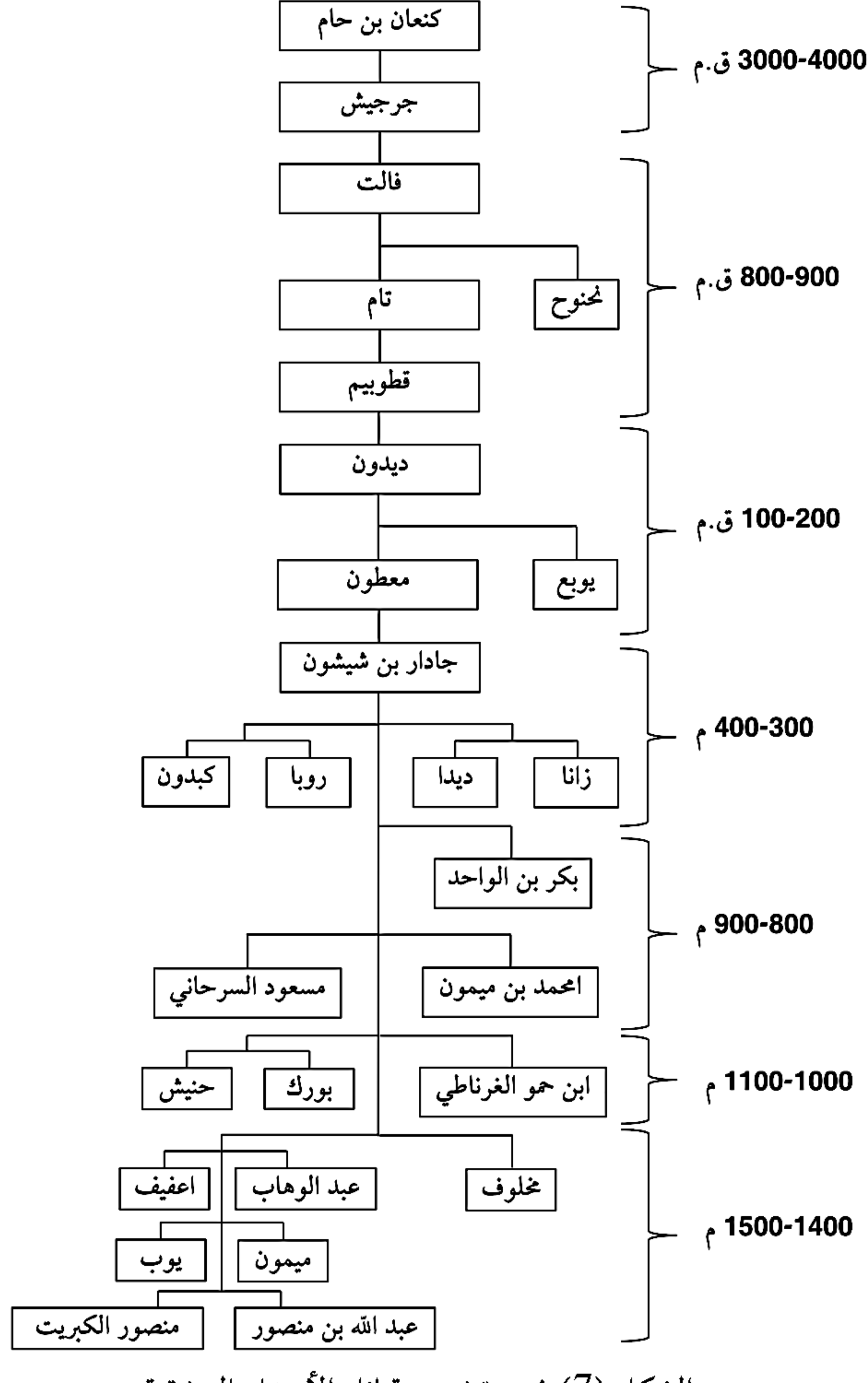
المبطوح بسيدي بلعباس و غير بعيد عنه استقر شقيقه سيدي يوب إزاء واد مكرة، فمن سيدي ميمون تشكلت قبيلة امهاجة الذين أقاموا مع بني عمومتهم من قبيلة أولاد علي بن يوب و هم ذرية سيدي يوب، و قد جاورتهم قبيلة الوهايبة شرقا باليعقوبية (سعيدة) و هي قبيلة تنحدر من سيدي عبد الوهاب الذي كان له ذرية بأرض اسويد بإزاء الصوامع و هي مستغانم أرض مغراوة و كان له ذرية أخرى بتلمسان كانت مستقرة إزاء بني عمومتها و هم بني عبد الله بن منصور بعين الحوت الذي ذكره ابن مريم التلمساني فقال عنه أنه عبد الله بن منصور الحوتي بن يحيى بن عثمان المغراوي و هو من الأجدار، و كذلك بني احساين في قبيلة بني هديل بجبل موطاس و هم أبناء سيدي مسعود السرحاني الجداري الذي نجى من موقعة الأربعين جداريا في عهد موسى بن أبي العافية و الذي فضل أن يسكن و ذريته أرض تلمسان و أن لا يهاجر مع باقي الأجدار إلى الأندلس، و من ذرية سيدي عبد الوهاب بتلمسان هاجر أحفاده إلى منطقة اليعقوبية (سعيدة) و استقروا بجبل أجدال التاريخي و الذي كان يدعى بجبل المانعة (المنعاء)، و لا يزالون يربطون قدسية الجبل بالرواية الجدارية فهم يقولون أن المانعة كانت امرأة عاشت في القديم و أن الوهايبة هم أبناء المانعة و قد عادوا إلى أرض أمهم، و المانعة في الرواية الجدارية هي نفسها مجدالة امرأة ديدون الجداري، و من الوهايبة برز القاضي الماحي بن سليمان الوهيبي اليعقوبي الذي أعاد كتابة تاريخ الأجدار بجذافيره، كما أن لهم بني عمومة من الأجدار و هم قبيلة المناصير و هم بنو سيدي منصور الكبريت بمنطقة تاوغزوت بتيارت.

أما عن الأجدار المنانعة الشراقة، فهم الذين افترق أجدادهم عن الأجدار بغرناطة و فضلوا الإقامة بمالطا و صقلية، و هاجروا منها عند سقوطها على يد روجر ملك النورمان و استقروا بالمدية ثم ذهب بعضهم شرقا إلى جبال الأوراس و ما جاورها من المناطق، فمنهم قبيلة حناشة من بني حنيش الذين ارتأوا الاستقرار بالمدية، و منهم بورك بن علي الذي عاد من صقلية ، و قد هاجر إلى باتنة و استقر فيها و كانت له منطقة بها تدعى أرض منعة كان هو من أسسها نسبة لأجداده الأجدار المنانعة، و قد خلف فروعا من القبائل كأولاد داود و أولاد عبدي و أولاد سيدي بلخير و كلهم بباتنة، و قد اختلف أهل الأوراس في أصل بورك فقد جاء في كتاب لماسكوراي يقول فيه أن السيد سعيد بن محمد قاضي الأوراس في الماضي و الموجود بسيدي عقبة يقول أن بورك كان رومانيا أما شيخ نارة فينسبه إلى النسب الشريف، و بعض منهم يرجعونه للأصول اليهودية، و هم بذلك يؤكدون بطريقة أو بأخرى على أصوله الجدارية فبقولهم أن له جذورا رومانية هم بذلك يقصدون انتمائه لقوم الأفارق البونيين الذين كانوا يجيدون اللاتينية في العهد الإسلامي، إلى جانب لسانهم الأفريقي البوني الذي يشابه العبرانية لسان اليهود فلذلك كانوا يظنونه ينتسب لليهود، بل حتى اسم (بورك) هو اسم بونيقي تسمى به البونيون القدامى و يعني (المبارك)، أما آخر قبيلة معروفة من الأجدار المنانعة الشراقة فهي قبيلة بني مخلوف بقسنطينة و جدهم مدفون بمسجد هناك يدعى بجامع الأربعين شريف، هذا إضافة إلى فروع أخرى منتشرة في بجاية، واد سوف، المسيلة، المنيعة و توات و فرع آخر بوجدة و هي القبائل التي لم نذكرها لشح المصادر اليقينية بخصوصها.

و قد كان الموقع الجغرافي لتمركز قبائل الأجدار استراتيجيا و في غاية الدقة، فقد سيطروا بشكل مثير للريبة على المناطق التي كانت تحت نفوذ الأجدار القدامى، فنجد مثلا أن بني منصور الكبريت قد استقروا إزاء منطقة لجدار (Djeddars) التاريخية التي كانت عاصمة مملكة الأجدار القديمة بتيارت، بينما استقرت امهاجة بمنطقة المسيد و هي منطقة تحوي جبلا يدعى جبل لالة روبا و الذي يرتبط تاريخيا بالشهيدة الدوناتية روبا الجدارية، و غير بعيد عنهم قبيلة أولاد علي بن يوب الذين سكنوا بالمنطقة القديمة كاستر سيفيريانا (Castra Severiana) التي عين عليها القائد لعاذير الجداري (Lider) على يد ماصونا ملك مملكة ألطافا في القرنين الخامس و السادس الميلادي، كما استقرت قبيلة الوهايبة بجبل أجدال (AGDAL) التاريخي لقبيلة الأجدار البونيقية، أما بني عبد الله بن منصور فقد سكنوا منطقة عين الحوت قرب المدينة القديمة لتلمسان و هي أجادير و التي يعتقد أنها تحوي الجدار الذي أقامه الخضر عليه السلام و أعاد أجدار بني قطوبيم بناءه بعد ذلك.

القبيلة	التصنيف	الجد الجامع	مناطق التواجد
امهاجة	غرابة	ميمون	وهران،سيدي بلعباس
بني علي بن يوب	غرابة	يوب	وهران،سيدي بلعباس
الوهايبة	غرابة	عبد الوهاب	سعيدة،سيدي بلعباس،تلمسان
بني اعفيف	غرابة	اعفيف	مستغانم
بني هديل	غرابة	مسعود السرحاني	تلمسان
بني عبد الله بن منصور الحوتي	غرابة	عبد الله بن منصور	تلمسان
المناصير	غرابة	منصور الكبريت	تيارت
أولاد داود	شراقة	بورك	باتنة
أولاد عبدي	شراقة	بورك	باتنة
أولاد بلخير	شراقة	بورك	باتنة
حناشة	شراقة	حنيش	المدية
بني مخلوف	شراقة	مخلوف	قسنطينة

الشكل (6) جدول يمثل مناطق تمركز قبائل الأجدار البونيقية الحديثة



الشكل (7) شجرة نسب قبائل الأجدار البونيقية

الفصل الثالث:

بقايا الثقافة البونيقية في تراث الأجدار

-الفكر الديني والمعبودات في بلاد المغرب القديم :

احتلت الديانة مكانة هامة في حياة شعوب بلاد المغرب القديم، والتي تركت لنا عدد لا يستهان به من الآثار المادية المتعلقة بالمعتقدات الدينية والتي تتمثل في بقايا المعابد والنقوش والنصب والتماثيل، كما تعددت الآلهة في بلاد المغرب القديم حيث حضيت بتقديس واهتمامات كبيرة وكان الإله يختص بجانب معين من الحياة في مختلف بلاد المغرب القديم.

كما كان للدين عند البونيقيين أهمية كبيرة، وأكبر دليل على ذلك صيغة أسماء الأعلام عندهم التي كانوا يحملونها والتي كان الكثير منها يدل على شدة ارتباطهم وتعلقهم بآلهتهم، ويشير إلى خضوعهم لها ويبين عواطفهم نحوها ومن أسماء الذكور نذكر: بعل حمون، عبد أشمون، عبد ملقرت أو عملقرت ومن أسماء الاناث نذكر: بنتبعل (ابنة بعل)، أمة بعل (خديمة بعل)... الخ.

و في المناسبات الهامة كان الحكام والملوك يقدمون القرابين لذلك كانت هناك احتفالات رائعة تكتسي جلالة وعظمة كبيرة، وفي كل عام كانت توفد حكومة قرطاج رسلا يحملون الاموال والهدايا إلى مدينة صور ويقدمون القرابين إلى الآلهة مع مظاهر الطاعة والاجلال والاحترام لهم، و كانت الحضارة النوميدية زراعية بالدرجة الأولى حيث تعتبر الدعامة الرئيسية للاقتصاد النوميدي و لهم اعتقادات لمعبودات فلكية كالشمس و القمر، وبما أن الحضارة النوميدية كانت في الريف فقد ارتبطت أكثر بالآلهة والأرواح المحلية، وهي التي سميت في وقت لاحق خلال الفترة الرومانية (بالآلهة المورية) ومع الانفتاح على العالم الإغريقي في عهد ماسينيسا وسياسته التوافقية مع أثينا وثقافته على

الخصوص، إنتشرت بين النوميديين عبادة إلهي الفلاحة ديميتر و كوري وهذا قبل ظهور الديانات الحديثة كالديانة المسيحية.

-المعبودات في بلاد المغرب القديم :

تعتبر الآلهة في بلاد المغرب القديم مصدرا للأمراض والشفاء في نفس الوقت، ولذلك كانوا يقيمون الاحتفالات الدينية التي من خلالها تقدم القرابين البشرية والحيوانية، وذلك بهدف إرضائها والترجي بها للعودة إلى الحالة الطبيعية، كما حملت العديد من النقوش الكتابية والصور والنقوش المنحوتة، فوق الأنصاب والبقايا الأثرية الأخرى من حلي وتماثيل صغيرة عثر عليها في العديد من مناطق بلاد المغرب، ومن أهم آلهة بلاد المغرب نذكر :

-الإله ايل: وهو من أكبر الآلهة وأقدمها، انتشرت عبادته بين مختلف عشائر الكنعانيين، ابتداءا من الألف الثالثة قبل الميلاد، حيث اعتقد الفينيقيون أنه هو خالق الخلق، وتشير كلمة إيل (الله) للإله الأكبر أب الآلهة والبشر لدى الفينيقيين. وكان هذا الإله يعبر عن الرعد والريح ويتحكم في الفصول والامطار، حيث رسم في العديد من الانصاب في صورة رجل ملتحي عليه ملامح العظمة والوقار مرتديا ثوبا طويلا، ويزين رأسه تاج محاط بقرون، وبعدها فقد الإله إيل اهميته تدريجيا كباقي الآلهة وأخذ مكانه بعل حمون.

-الإله بعل حمون: الإله بعل حمون يعتبر من أكبر الآلهة البونيقية وأكثرهم شهرة، وهو إله فينيقي من حيث التسمية قبل أن يكون بونيقيا. واسم هذا الإله يعني السيد، أو صاحب القوة ومؤنثه بعلة و جمعه يعني بعليم، أما المقطع الثاني فهو يعني الحرارة أو

الجمر وبهذا يكون بعل حمون هو سيد النار أو سيد الموقد، و يمكن إرجاع اسم حمون بأنه يعني سيد المعبد الذي تقدم فيه الأضاحي البشرية واشتهر بعل حمون بألقاب عديدة من أهمها: سيد الانصاب جميعا وكان هذا اللقب المتداول بينهم، كما اعتبر حاميا للأموات ومعينا لهم في رحلتهم فقد عثر على صوره في العديد من الحلي التي تزين الموتى، ولقد خصص له العديد من المعابد منها معبد صلمبو بقرطاج كما كان بعل حمون إله البيت أيضا من خلال ما تدل عليه النقوش الكثيرة، ونظرا لتجذره في عقول النوميديين فقد نقش بعض الأمراء النوميد صورته على نقودهم خاصة في عهد الملك ماسينيسا ولقد جاءت صورة الإله بعل في هيئة عجوز تملأ اللحية وجهه وهو يجلس على كرسي العرش المزين واضعا على رأسه تاجا بارزا حادا من الأعلى أو قبة مزينة من الريش، وهو جالس فوق العرش و على يده اليسرى يحمل عادة عصا أو صولجانا مزودا بمقبض، ورافعا يده اليمنى للأعلى لمباركة المقربين اليه، والعصا أحيانا ما تنتهي بسنبلة من القمح.

-**الإلهة تانيت بيني بعل**: لقبت الإلهة باسم ربت، والتي تعني السيدة الكبيرة وهي الأكثر تقديسا من بين الآلهة و أكثر شهرة في قرطاج حيث يعود تاريخ بروزها منذ القرن الخامس قبل الميلاد، ولقد اعتبر بعض الدارسين ظهور الإلهة تانيت انعكاسا لإصلاحات دينية وسياسية حصلت في قرطاج خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ولقد ارتبطت تانيت بالطبيعة والحياة البرية والصيد وأنها إلهة زراعية توفر المطر وتسهر على خصوبة التربة، وتعتبر واحدة من الآلهة القليلة التي عبدها العالم تحت اشكال متعددة وطقوس مختلفة،

فهي تعادل عند الفينيقيين الإلهة عشتارت وعند الاغريق الإلهة أرتيمز وعند الرومان الإلهة ديانا وعند المصريين الإلهة نيت تهنبو أي نيت الليبية.

ولقد اختلف العديد من المؤرخين في تحديد أصلها فبعضهم يرى اصلها شرقيا ويربط بينها وبين عشتارت الفينيقية نظرا لتشابهها في الدور الديني المتمثل في الخصوبة والتناسل، حيث يقول المؤرخ خزعل الماجدي، بأن أصل هذه الإلهة بربرية تبناها البونيقيون.

ونجد أن الإلهة تانيت ارتبطت برموز عديدة ومتنوعة سواءا في مدينة قرطاجة ذاتها أو في المدن البونية أو النوميدية فظهرت وهي تحمل سعف النخلة وبجانبها ترسم رموز الخصب كالسمكة لترمز للايمان والسلامة، وأقيم لعبادتها والتضرع إليها تماثيل خاصة ومعابد وكهنة يسهرون على خدمتها، لكن لم تنتشر عبادة تانيت خارج قرطاج.

و قد لقبت الإلهة تانيت بلقب الأم حيث أضيفت عليها صفة الأمومة التي تحتضن الاطفال الصغار وتتكفل بمصيرهم والساهرة على تواصل النسل، و بالتالي فقد لعبت تانيت دورا رئيسيا في حياة البونيين والقرطاجيين فكانت قريبة منهم واستحقت لقب الربة الأم.

إن الديانة عند شعوب بلاد المغرب القديم كانت لها أهمية كبيرة في كثير من مظاهر حياتهم فتعلقوا وارتبطوا كثيرا بالآلهة حيث كانت القرابين تقدم لها بهدف إرضائها وترجيتها، ومن بين الآلهة الإله إيل الذي يعتقد أنه من أكبر الآلهة و أنه خالق الخلق ورسمت صوره في العديد من الأنصاب و عليه ملامح العظمة والوقار، و الإله بعل حمون و هو سيد الانصاب و حامي الأموات وخصص له معبد بقرطاجة و هو معبد صلمبو، و الإلهة تانيت فهي السيدة الكبيرة ومرضعة الاطفال وهي الأكثر شهرة من بين

الآلهة، و الإله اشمون و هو إله الطب و قد انتشرت عبادته انتشارا كبيرا بقرطاجة حيث ربط العديد من مواطني قرطاجة أسماءهم به لعظمته .

وأقيم لهذه الآلهة معابد من أجل التقرب إليها وترجيتها ولقد قدس القرطاجيون والنوميديون وغيرهم من شعوب بلاد المغرب القديم، الكثير من الآلهة والعديد من الطقوس والعبادات الدينية التي بنوا عليها أفكارهم و اعتقاداتهم في الحياة خلال الأزمنة القديمة .



الشكل (8) نماذج من الآلهة البونيقية القديمة

-الطقوس :

إن الباحث في مجال الحياة الدينية المغاربية عامة وفي المعتقدات خاصة، سيلاحظ أن الانسان في بلاد المغرب القديم مارس طقوسا متنوعة ومتعددة متميزة نوعا ما عن بعض الشعوب والتي تمثلت أهمها في طقوس روتينية وطقوس جنائزية منها السحرية والغيث ....الخ، وقد اعتقد الانسان أن هناك حياة أخرى بعد الموت، وهذا ناتج عن التنقيبات التي أجريت على أماكن الدفن، فقد وجد بها مواد وأثاث يدل على ذلك.

-الطقوس السحرية :

إن المؤرخين والباحثين بمنطقة المغرب القديم في المجال الديني يؤكدون أن للسحر مكانة كبيرة في حياة الانسان فهي ممارسة حضيت باهتمام كبير. وتتجسد و تتبين هذه الظاهرة من خلال الرسومات والنقوش الصخرية والتمائم والأوشام والتعويذات. فالرسوم والنقوش الصخرية المنتشرة في شمال افريقيا لها اهمية خاصة في دراسة التطورات التي عرفتها المنطقة في مختلف جوانب الحياة، وفي هذا المجال هناك اختلاف بين الباحثين، في حقيقة تلك الرسوم ووظيفتها، بحيث أثبتت بعض الرسومات أن الانسان يحمل قوسا و عصا وهو يتلفظ بكلمات سحرية، وتلفظ البشر بتلك الالفاظ السحرية يعني اعتقادهم أن الكلمات تشارك في جوهر الأشياء وهناك رسومات ونقوش تظهر المرأة والرجل واقفين وجالسين والأيدي مرفوعة، وهذا يعني ممارسة سحرية.

إن الخوف من المجهول و الأخطار التي كانت تهدد الانسان في شمال افريقيا أدى إلى اللجوء إلى لباس أقنعة واتخاذ التعويذات والتمائم من أجل طرد الارواح الشريرة التي

تحدق بالإنسان القديم بصفة عامة، ودائما يحاول الانسان الاقتراب إلى الارواح الخيرة بحثا عن الامان والاطمئنان في حياته، فارتدى الأقنعة وتنكر في شكل حيوانات ضخمة بوضع جلودها والقيام بحركات ورقصات سحرية، وهذه العملية عبارة عن تمويه وتظليل حتى تبتعد الأرواح الشريرة، عن كل امرأة أو رجل أو طفل أو عجوز وهو متنكر على شكل حيوان ضخم وقوي.

- **طقوس الغيث**:

لقد كان سكان بلاد المغرب القديم إذا بحثوا في البراري والأراضي ولم يجدوا لديهم شيئا من الماء يقومون بجمع قليل من الغبار أو التراب ويلعقونه ويشمونه، و يخرجون في شكل جماعات وأسر وعائلات لممارسة هذا النوع من الطقوس في منطقة واسعة وشاسعة، وهم يعبرون لآلهتهم عن احتياجهم للغيث، وذلك بإظهار ضعفهم وعدم قدرتهم على أن هذا الجفاف الذي أصابهم عقاب من الآلهة.

وقد وصف هيرودوت معركة (العذارى) و هي بأن تنقسم الفتيات إلى قسمين ويدخلن في مواجهة عنيفة بضربات الحجارة والعصي، وبعدها يأخذون أجمل المشاركات في تلك اللعبة ويقومون بتزيينها بسلاح اغريقي وهو طقس يمارس أثناء غياب الأمطار.

ويذكر أحد الباحثين الأوروبيين أنه حين وقوع الجفاف في مناطق المغاربة القديمة بشمال إفريقيا، تقوم مجموعة من العجائز بالتجمع لتحديد يوم احتفال يعرف باسم أنزار. في يوم أنزار تخرج كل النساء برفقة الصغار وهن يحملن ملعقة كبيرة مكسوة بالأقمشة والجلد فتتحول إلى دمية كبيرة وهن يرددن الأهازيج والدعوات يطلبن فيها نزول الغيث،

وأثناء السير تلتحق بهن مجموعة أخرى، وتقدم للموكب قليلا من الدقيق والزيت واللحم، فيتم تحضير الطعام عند الضريح، و تتبع بلعبة العصي و تسمى لعبة زرزاري، وفيها تتجمع الفتيات اللواتي هن في سن الزواج حول الفتاة التي تقوم بدور خطيبة أنزار وينقسمن إلى قسمين ويتعانقن بالعصي حتى تسقط في الحفرة المحددة لها، ثم تدفن الكرة في المكان المخصص لها، وبعدها تعود النساء إلى بيوتهن وتخبأ الملعقة الكبيرة إلى احتفالات أخرى.

إن الملاحظ لهذه العادة يجد أنها حضور للنساء فقط و ليس فيها حضور للرجال، و الأمر ينطبق في معظم الاحتفالات وهو ما يسمح لنا باستحضار فكرة الخصوبة المرتبطة بالمرأة والارض، و لكن بعدها دعا المجتمع إلى إيقاف ممارسة هذا الاحتفال فأصبح الاحتفال مقتصرا على حمل الملعقة دون غيرها.

- **تقديم القرابين** :

كان للطقوس التي تنتهي بتقديم القرابين و الأضاحي للآلهة مكانة هامة في حياة الانسان البدائي الدينية، وقد اعتبرت القرابين من أهم الشعائر الدينية لدى جميع الحضارات الانسانية من اكثرها بدائية إلى أسماها وأكثرها تطورا وتقديم القرابين طقس ديني، يتمثل في تقديم أضاحي ما حيوانية أو نباتية أو غيرهما، من أجل تقريب الخير أو إزالة الشر، وقد وجد هذا الاعتقاد انطلاقا من إيمان القدماء بحاجة الآلهة والأموات من الناس إلى الطعام كحاجة الأحياء إليه ولم تقتصر على الأكل فقط بل شملت اللباس والحلي، وأدوات الزينة وغيرها من الاحتياجات اليومية كما أنها تفاوتت كمية وقيمة حسب غنى أو فقر المضحي.

ولقد وثقت هذه العادة من خلال مختلف النقوش الجنائزية والرسوم الصخرية المكتشفة في شمال افريقيا، وما عثر عليه في ملحقات الكثير من القبور على شكل اواني فخارية تحمل عظاما حيوانية وبقايا اغذية، و انتشرت عادة تقديم القرابين في جهات متفرقة من الاطلس الصحراوي وبمنطقة الحرمة قرب قسنطينة وقالمة وبسكرة، و قد عثر على رسوم صخرية تمثل أشخاصا جاثمين على ركبهم وهم رافعين أيديهم إلى الأعلى حاملين أشياءا رسمت بطريقة غير واضحة فسرت على أنها قرابين لآلهة ما.

-الأثاث الجنائزي والحياة الأخرى:

يعد الأثاث الجنائزي من أهم الشواهد الأثرية من أجل دراسة الطقوس والمعتقدات الدينية وتأريخها، وهي التي بينت علاقة الإنسان الميت بالبيئة والمحيط الذي عاش فيه وقد تبين من خلال البحث و تنقيبات في المدافن عدة أنواع من المدافن نذكر منها:

الفخار: يشكل الفخار النصيب الاكبر من المرفقات الجنائزية وأغلبية الاواني الفخارية الآتية من العالم الجنائزي تقع بالجزء الشمالي الشرقي و من الصعب دراسة الفخار رغم أهميته في دراسة الطقوس الجنائزية، وقد صنف الفخار إلى صنفين وذلك حسب دوره العقائدي أولا ثم على أساس شكله وحجمه ثانيا أما المجموعة الأولى متمثلة في الأقداح والأقصاع والمصابيح، ويتمثل دورها العقائدي في ممارسة السحر أما المجموعة الثانية تتكون من الأواني المحدبة والكأسية و دورها تقديم القرابين الغذائية.

-الحلي : تم العثور على مدافن فيها الحلي وأدوات الزينة مع أي نوع من وضعية الدفن و قد وضعت الزينة على أجسامهم أو مع العظام المبعثرة، ووجودها داخل المدافن عبارة

عن ملكية للميت خلال الحياة الدنيوية ثم ترافقه لمثواه الأخير كأدوات للتزيين في الحياة الثانية إلا أن تحديد دورها العقائدي بقي غامضا.

-الحياة الاخرى :

لم يكن في اعتقاد أي مجتمع من المجتمعات القديمة بأن موت الانسان يعني الفناء النهائي بل كانت هذه المجتمعات تقيم اعتقادها الديني والجنائزي على أساس الحياة الثانية بعد الموت، فكان الجسد يمثل العنصر الاساسي في هذه العملية، أي في اعتقادهم أن الروح عندما تنزل في المرة الثانية يجب أن تتعرف على جسدها الحقيقي، ولقد كان الانسان يعتقد بأن الجسد لا تسكنه روح فحسب فيوجد من كانوا يرون أن هناك نفسا أي نفس مادية أو نباتية وأن هناك روح المتوفي و لا يفقد لدى موته سوى الروح، ويحتفظ في قبره بالقرب من جسده بنفسه المادية أو النباتية التي تحتاج لأن تأكل وتشرب وأن تتنزه أو تتأمل الطبيعة، لذلك كانت المقابر تطل عل البحر وتعتبر هذه العناصر الروحية التي تقول بحياة ترتقي عن حياة الجسد دليلا على أن الروح ليست أسير قبر فقط.

و قد ساد الاعتقاد بفكرة اصطحاب الميت لأدواته وحاجاته كوسائل الحياة اليومية مثل الاواني الفخارية والمزهريات والتمائم، التي تكون موجهة لحماية الميت و تدفع عنه الضرر من الأرواح الشريرة كما ساد كذلك الاعتقاد عند الإنسان بفكرة تقديم الاضاحي قربانا لآلهة حتى ترضى عن الميت وقد أوردت بعض الكتب أن الملكة عليسة عندما أرادت الزواج هيأت قرابين لترضية روح زوجها القديم.

-بقايا المعتقدات البونيقية في تراث الأجدار:

رغم البعد الزمني الذي يفصل قبائل الأجدار عن معتقداتهم القديمة منذ تخليهم عنها، و لكن هذا لم يمنع من تمكن بعض آثار هذه المعتقدات من الصمود حتى العصر الحالي عندهم، و لو كانت هذه الآثار تدخل ضمن خانة العادات و التقاليد بعيدا عن كونها معتقدات، و قد تمثلت هذه البقايا التراثية في :

الزراعة البعلية : و تعتبر من أهم و أقدم طرق الزراعة التي عرفها الكنعانيون القدامى لاعتمادها على مياه الأمطار قبل أن يخترع الانسان السواقي من أجل ري الارض بمياه الأنهار لمسافات بعيدة عن ضفة النهر، و يعتمد عليها بعض شعوب البحر المتوسط بسبب رطوبة الجو و ندرة مياه الانهار فى بعض الاماكن، و سميت بالزراعة البعلية نسبة للإله الكنعاني القديم (بعل) حيث كانت شعوب مناطق تواجد الفينيقيين و البونيقيين تتقرب إلى هذا الإله من أجل نزول المطر، و لا زال هذا المصطلح متواجدا حاليا في بلاد المغرب العربي و قبائل الأجدار هم عينة من الذين ساهموا في الحفاظ عليه.

عليسة : و تدعى (لالة عليسة) في الموروث الشعبي خصوصا عند قبائل الأجدار الذين استقروا بتونس، و قد كان اسمها الحقيقي (أليشا) أو (ديدون) و هي الأميرة الفينيقية التي هربت من صور إلى بلاد المغرب القديم لتؤسس مدينة قرطاج على أراضي النوميديين القديمة، و لا زالت بعض من أحداث قصتها متداولة في التراث القروي في بعض مناطق تونس و الشرق الجزائري حيث تقطن بعض قبائل الأجدار.

الشاشية (**مراش تانيت**): و هي غطاء الرأس، و كانت ترمز عند الفينيقيين القدامى للآلهة عشيرة التي تقابلها الآلهة تانيت عند البونيقيين، و كان لها غطاء رأس مثل الشاشية و يشبه الخوذة المذيلة، و كان مزودا بقرن ملفوف في مقدمته يدل على الألوهية و يدعى بمرأش تانيت، و تحول لاحقا إلى قبعة كهنوتية دينية حين تحولوا للمذهب الدوناتي و هو ما يمثل عندهم (المانوعة) أي مرادف الخمار المقدس الحامي (الزعيمف).

عادة تانو : و هو تقليد يعود للآلهة البونيقية (تانيت) و التي كانت المعبود الأول في بلاد المغرب الكبير، وهي مماثلة لعشتار الفينيقية والبابلية، وأصلها فينيقي و هي آلهة الخصوبة والسماء، وهي حامية مدينة قرطاج البونيقية. و تعتبر هذه الآلهة الأشهر في قرطاج، ويطلق عليها لقب (وجه بعل) وقد احتلت منذ القرن الخامس قبل الميلاد المرتبة الاولى في النصوص البونيقية واستمرت عبادتها حتى بعد زوال قرطاج، و تعتبر عادة (أمك تانو) عادة قديمة تقليدية لطلب المطر، و تشبه العادة القديمة (تاغنجا)، و من الواضح أنها متوارثة من العهد البونيقي وتندرج تحت عبادة الإلهة البونيقية تانيت (تينيت أو تانو أو تانجو). و قد تراجعت هذه العادة، لكنها مازالت حاضرة بقوة في بعض الجهات بتونس و شرق الجزائر و حتى في بعض المناطق في أرياف غرب الجزائر.

الجلوة : و هي من التقاليد التونسية و الجزائرية الشرقية العريقة المتوارثة منذ أجيال و التي نجدها في الأعراس، و هي في الأصل تقاليد متوارثة عن أجدادهم البونيقيين، حيث تتمثل هذه الطقوس في ذهاب العروس قبل ليلة زواجها إلى معبد الآلهة تانيت، آلهة الخصوبة عند البونيقيين، بلباس من ذهب كلون الشمس، فتدور سبع مرات، طالبة

تانيت أن تمنحها الخصوبة. في نفس الوقت ترفع يديها إلى السماء مثلما تفعله الآلهة تانيت و هو ما يشبه العادة المتداولة في عصرنا الحالي عند المناطق المذكورة.

الحلي ذات الرموز البونية : تنتشر الحلي ذات الرموز البونية بشكل كبير في منطقة المغرب الكبير خصوصا تلك التي نجدها لدى قبائل الأجدار، حيث نلاحظ تواجد رمز (خميسة) أو (خمسة) و هو رمز تعود جذوره إلى المعتقدات البونيقية و تمثل يد الآلهة تانيت المانعة، فلا يكاد يخلو منها صدر امرأة أو سيارة، فالناس يعتقدون أن بها قوى سحرية تحصن حاملها من المخاطر و تقيه من العين الحاسدة.

خاتمة

في هذا الكتاب، استعرضت أهم المعلومات التي وصلتنا عن قبائل الأجدار البونيقيين، فألقيت نظرة على تاريخهم و نشأتهم وانتشارهم في مختلف المناطق بالمغرب الكبير.

لعله من المفيد في خاتمة هذا البحث التذكير بأن بلاد القبائل الرحل وشبه الرحل الواقعة بين التل الأعلى شمالا والصحراء جنوبا، والتي اعتبرها هؤلاء مجالهم الحيوي بل خاضوا حروبا طاحنة مع كل من حاول التضييق عنهم في حلهم وترحالهم، نشأت بين ظهرانيها خلال القرن الرابع عشر وما بعده تركيبة اجتماعية دينية لم تعرف من قبل، مثلت تجسيدا واقعيا لثنائي العصبية القبلية والدعوة و كان نواتها المركزية شيخ صوفي شريف أو منتسب إلى الشرف، قطع مع التقاليد البدوية وجمع حوله مريدين آمنوا بما دعا إليه، فهم لا تجمعهم العصبية بقدر ما يجمعهم الانتماء الروحي ممثلا في طريق الشيخ المرابط. وقد توسعت هذه البطون الصوفية بانضمام عناصر خارجية تستفيد من القداسة الرمزية للولي الحامي ولممثليه الأحياء. هذه التركيبة الاجتماعية الجديدة ما كان لها أن تظهر وتتفرع لتكون قبيلة مرابطية لولا التفكك الذي عرفته القبائل الأصلية بفعل الصراعات والنزاعات داخل القبيلة الواحدة وبين القبائل المتحالفة منذ عرفت هذه المنطقة دخول عنصر الأعراب من هلال وسليم بكثافة مع القرن السادس والسابع للهجرة أي الثاني عشر و الثالث عشر ميلادي، الشيء الذي أضعف الزعماء التقليديين وأعطى للشيخ الصوفي وعائلته وأتباعه دور الوسيط والحكيم الذي تهابه الناس ولا تقوى على مخالفة رأيه.

وقد أثبتت التحقيقات العلمية بما لا يقبل الجدل اختلاط الأقوام الرئيسية التي انتشرت في شمال افريقيا أي بلاد المغرب الكبير الطبيعية و هي الأقوام الكنعانية البونيقية، و البربرية، والعربية و الكرغلية و الأندلسية و غيرها، وامتزاجها واندماجها بعضها ببعض حتى نشأت منها شخصية واحدة جديدة و هي الشخصية المغاربية.

ومن خلال هذا الشعب والشعوب الأخرى التي تواجدت أو قدمت إلى المنطقة تم تشكيل وإيجاد شعب تكلم باللسان المغاربي واعتنق المسيحية و الإسلام وأقيمت له دويلات وممالك، وانتشرت الحضارة التي وسمت هذه المنطقة، وقاومت الغزاة، فأبقت على خصوصيتها وبقي هذا الاستمرار الممتد عبر : ثلاثة آلاف ومئتي سنة، بيننا من خلال الشعب البوني الذي لازال موجودا كطائفة واحدة في مناطق منهم من يتكلم العربية المغاربية و منهم البربرية.

ولقد حاول البونيون من خلال تاريخهم وفي خضم الغزوات والحكم الأجنبي، وفي أزمان لم تتح لهم فيها الحرية للإبداع والخلق أن يتكيفوا مع مختلف من حكموهم، مبرهنين على أنهم عنصر مسالم تواق إلى الخير والبنيان، من خلال شعورهم بأصالتهم في هذه البلاد، فكان شأن بعدهم عن السلطة أن نهلوا من العلم والثقافة برصيد كبير ضمن جماعات أعادت لمفاهيم القوة والبطش والاستغلال جل تفكيرها، فكانت هذه تصل إلى السلطة ومن ثم تتقهقر حتى أنها أبيدت في أحيان كثيرة.

وفي كل ذلك كان ولاء البوني لوطنه المغاربي سواءا كان ليبيا، الجزائر أو تونس ولاءا عفويا وجدانيا ينبثق من أعماق النفس مندفعا بحرارة المحبة للأرض التي أنبتته وضمت رفات أجداده، وبالحياة الواحدة التي تجمعه مع إخوانه تحت جناحها وبالمصير الواحد

الذي قررته طبيعة البيئة الواحدة وبالمصالح الأساسية التي تلفه مع أبناء وطنه بإطارها الحميم.

إن حضارة البونيق هي ثمرة مجهودهم الذي قاموا به لتحسين ظروف حياتهم على وجه الأرض ماديا أو معنويا. وعلى ذلك يمكن أن تقاس الحضارة في مدى ذلك التحسن المادي والمعنوي، والتحسن المعنوي مقدم على التحسن المادي لأن الغاية القصوى للتحسين هي شعور الإنسان بالأمان والاطمئنان والكفاية وقيام مجتمعه على التفاهم والتعاون والمحبة، بدلا من قيامه على التحايل والأنانية والقانون الذي تنفذه قوة غاشية.

المراجع العربية:

ليبيا في التاريخ. (1970). الجامعة الليبية،كلية الأدب.

الحبيب الجنحاني. (1978). *المغرب الاسلامي: الحياه الاقتصادية والاجتماعية، 3-4 هـ/910 م*. الدار التونسية للنشر.

الشاذلي بورونية. (1999). *قرطاج البونية: تاريخ حضارة*. مركز النشر الجامعي – قرطاج.

بارودي، رضوان. (2007). *دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس*. مركز الاسكندرية للكتاب.

باهي، أحمد. (2004). *سوسة والساحل في العهد الوسيط*. مركز النشر الجامعي.

بوكبوط، محمد. (2002). *الممالك الأمازيغية في مواجهة التحديات: صفحات من تاريخ الأمازيغ القديم*. مركز طارق بن زياد.

جربي، فيصل علي أسعد. (1996). *الفينيقيون في ليبيا من 1100ق.م حتى القرن الثاني الميلادي*. الاردن – الجامعة الاردنية.

حسن باش. (1988). *المعتقدات الشعبية في التراث العربي: دراسة في الجذور الأسطورية والدينية والمسلكية الاجتماعية*. دار الجليل.

خرازي، بديعة. (2007). *تاريخ الكنيسة النصرانية في المغرب الأقصى*. منشورات المعارف.

عبد الحفيظ فضيل الميار. (2005). *دارسة تحليلية للنقائش الفينيقية البونية في إقليم المدن الثلاث في ليبيا*. منشورات الفاخرية.

عبد القادر جغلول. (1982). *مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط*. دار الحداثة.

عبد الكريم يوسف. (1984). *العلاقات الخارجية للدولة الرستمية*. المؤسسة الوطنية للكتاب.

غانم، محمد الصغير. (2003). *معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر*. دار الهدى.

غلاب، محمد السيد. (1969). *الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ*. دار العلم للملايين.

فرجاوي، أحمد. (1993). *بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة*. المعهد الوطني للتراث.

فركوس، صالح. (2005). *تاريخ الجزائر: من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال : المراحل الكبرى*. دار العلوم للنشر والتوزيع.

فوزي محمد طايل. (2001). *المعتقدات الكنعانية*. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.

فيتوري، جمعة مصطفى. (2002). *النشاط العقدي بالغرب الإسلامي خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجري*. دار المدار الاسلامي للتوزيع.

مبكر، محمد. (2001). *شمال إفريقيا القديم: حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية، 305 م-429 م*. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

محمد علي دبوز. (1963). *تاريخ المغرب الكبير*. مطبعة عيسى البابي الحلبي.

محمد عيسى حريري. (1987). *الحضارة الرستمية بالمغرب الإسلامي :حضارتها و علاقاتها الخارجية بالمغرب و الأندلس*. دار القلم.

محمد فنطار. (1970). *يغرطة من ملوك شمال إفريقيا وابطالها*. الدار التونسية.

وضاح مجد الدين الخطيب. (2003). *التوسع الفينيقي في البحر الأبيض المتوسط*. بيت الحكمة للإعلام والنشر والتوزيع.

المراجع الأجنبية :

L'Anthropologie. (1904). Masson.

antiquités, S. d. (1957). *Libyca: bulletin du Service des antiquités. Archéologie, épigraphie, Volume 5*. Le Service.

Bonnet, C. (1995). *La religion phénico-punique: Apologie pour une approche historique.*

Cabrol, F. (1914). *Dictionnaire D'archéologie Chrétienne Et de Liturgie.* Letouzey et Ané.

Dridi, H. (2006). *Carthage et le monde punique.* Belles lettres.

Gesenius, F. H. (1837). *Scripturae linguaeque phoeniciae monumenta.* sumptibus typisque Fr. Chr. Guil. Vogelii.

Judas, A. C. (1861). *Mémoire sur dix-neuf inscriptions Numidico-puniques inédites, trouvées à Constantine, en Algérie.*

Krings, V. (1995). *Handbuch der Orientalistik: Der Nahe und Mittlere Osten.* BRILL.

Lipiński, E. (1995). *Dieux et déesses de l'univers phénicien et punique.* Peeters Publishers.

López, J. P. (2006). *Ibn Khaldoun: La Méditerranée au XIVe siècle.* Fundación El legado andalusì.

Maier, J. L. (1987). *Le Dossier du donatisme.* Akademie-Verlag.

Mesnage, J. (1913). *Romanisation de l'Afrique, Tunisie, Algérie, Maroc.* B. Beauchesne.

Monceaux, P. (1912). *Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne, depuis les origines jusqu'à l'invasion arabe.* E. Leroux.

Tlatli, S.-e. (1978). *La Carthage punique: étude urbaine : la ville, ses fonctions, son rayonnement.* J. Maisonneuve.